سعاد تدق الأجراس

قصص قصيرة

محمد نبيل الخربوطلى

اسم الكتاب	سعاد تدق الأجراس (مجموعة قصصية)
المؤلف	محمد نبيل الخربوطلى
دار النشر	دار سما للنشر والتوزيع
التليفون	٠١١١٩٥٧٨٤٢٧ - ٠١١١٣٠٦٨٤٠٩ - ٠١٢٨٤٣١٨٤٤
الطبعة	الأولى
العنوان	٣١ ش الإمام - جيزة - جمهورية مصر العربية
رقم الإيداع	٩٢٦٨ - ٢٠١٤
الترقيم الدولى	٦ - ٠٩ - ٦٣٧٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

جميع الحقوق محفوظة للناشر ولا يسمح بنسخ الكتاب أو جزء منه بأي طريقة كانت ورقية أو إلكترونية إلا بإذن كتابى من الناشر

التنسيق والإخراج الفنى: المكتب العربى لخدمة الكتاب والتراث

٠١١١٥٧٤٢٣٠٣ - ٠١٢٢٠٣٧٨١٢٥ - ٠١١٤٥٣٢١٣٨٧

سعاد تدق الأجراس

قصص قصيرة

بقلم : صيدلى

محمد نبيل الخربوطلى

عدد القصص (٨)

(١)
أوراق العمر

انطلق صوت المنبه رتيباً حاداً.. كالصاعقة هوت يده على المنبه فأسكته على الفور... حثيثاً أخذتا عيناه تتفتحان، ليرى الحجرة من وراء ضباب، كثيف لم يكن فى حاجة إلى النظر إلى المنبه فانطلاق الجرس الملعون يعنى أن الساعة السابعة صباحاً...

كالعادة مكث بالسرير خمسة دقائق بين الذهول والنوم والاستيقاظ، نهض بعد أن استجمع قواه ليرفع جسده الثقيل... جلس يفرك عيناه، يهز رأسه كالبندول علَّه يستفيق ولكنه كان يعلم أنه لا يستفيق إلا بالماء البارد..

بحثت قدماه عن الشبشب.. وجدتهما فى صعوبة.. قام تثاءب.. فى خمسة خطوات كان ينتقل من حجرة النوم إلى الصالة.. تلوى مع انحناءات الطريق بين الكراسى والمنضدة حتى وصل إلى

الحمام.. خلع ملابسه والقى بجسده تحت الماء البارد.. شهق عدة شهقات إثر ارتواء جسده بالماء، ساعتها بدأ دبيب الحياة ينتشر فى أوصاله.. ارتدى ملابسه الداخلية فقط وفى خطوات سريعة ولج حجرة النوم.. مرة أخرى.. إرتدى.. قميصاً أصفر واختاره من بين الخمس قمصان المعلق فى الدولاب الخشبى الضخم.. ووصل ملابسه بالبنطلون الأسود الذى تحمله سنتين دون كلل.

فى حركة بهلوانية فرش سجادة الصلاة ونقر نقرتين ثم لملم السجادة وأودعها موضعها فى عمق الحجرة ولاذ بالصمت.

كان عليه أن يهبط أربعين درجة حتى يصل إلى قلب الحارة.. فعلها ببطء فقد كان يتمنى أن يسعده الحظ ويرى مدام فاتن التى لقبها بمدام فاتن الفاتنة، وهى موظفة وتخرج فى موعده ويراها مرة أو مرتين فى الأسبوع وساعتها يسلط عينيه على ساقيها الناعمتين المصبوبتين فهو لا يحب فى المرأة إلا السيقان ويدعى أنه أكثر رجلاً فَهِماً لسيقان المرأة على مستوى العالم.. باءت محاولة لرؤية مدام فاتن بالفشل، وكان هذا جديراً بتعكير مزاجه طوال الصباح..

دق الأرض مشياً فى حارته العزيزة التى عاش بها أربعة عقود

متواصلة وهو إذ يمرق فإنه يمرق على تل من معرفة دقيقة لكل ما يدور فى بيوت حارته الصغيرة.. فهو شديد المتابعة لأخبار الزيجات التى تتم باستمرار إذ أنه محروم من الزواج لضيق ذات اليد..

وكما يحب، انتهز الفرصة لرؤية مدام فاتن على درجات السلم، فهو يحب انتهاز الفرص لرؤية نساء الحارة وهن يلقين النظر على نهر الطريق فتتدلى الأثداء وساعتها يقتنص الفرصة ويقطف نظرة تقع على صدر عارى قد فارق فتدلى كنعاقيد العنب الأحمر.

ولكن كل هذا.. وإن كان يؤديه لرغبته المحمومة... لا يمتعه بقدر ما تمتعه مدام فاتن ذات الساقين الجميلتين، تلكم الساقين اللذين يعتبرهما أجمل ساقين فى مصر، لهذا فمدام فاتن هى عروس أحلامه الجسدية على طول الخط..

ووصل إلى المحطة، وفى لمح البصر حدد الهدف. غزال رشيق يقف بمفرده فى آخر المحطة وعلى الفور اشتعلت قرون استشعار رغبته المتوهجة دائماً، وما أن أشتعلت حتى جَرّت قدميه إلى الغزال الوحيد.. وحثيثاً وصل إليها.. دار حولها وكالعادة إستقر خلفها.. كانت ترتدى ثوباً من قطعتين لم يهتم بالصدر وإنما غرس عينيه

فى الساقين ولكن لسوء حظه كان الرداء طويلاً... بعد برهة أخذت تتململ وقد ظهرت بوادر الخوف والاضطراب على وجهها، حاول أن يطمئنها بأن تحرك دائراً حولها.. التفتت إليه.. نظرت إليه فى ازدراء وقالت (قلة أدب). ثم تركت المحطة وسارت فى قوة فى اتجاه عربة أجرة نادت إليها فى استغاثة...

صُعق فهذه أول مرة توجه إليه مثل هذه الإهانة.. إن له خبرة عقدين من الزمان فى التسكع حول النساء.. وفى إبداء الرغبة العارمة تجاههن ولكن إحداهن لم تجرؤ على إهانته مثل هذه المرة.. أرجع كل ذلك إلى فرط شوقه إلى مدام فاتن فهو الأسبوع يمضى ولم يرها حتى الآن مرة واحدة.. ومدام فاتن هى التى ترويه من حين لآخر.. ولكن صدى الإهانة لم يخمد بداخله وردد (هل أنا قليل الأدب)..؟

صب لعناته على كل شىء... على الفقر وعلى العالم، بل على العالم كله.. على راتبه الذى يكفيه بالكاد وغمم أنه يعيش على حافة الحياة على القوى العاملة التى أودعته عملاً لا يحبه فى مجلس الحى...

ثم هتف فى نفسه وهو يتحسس شاربه الكث المزدان بشعر فضى بدأ يزحف عليه فى بطء (لا شك أنها لا تعرفنى.. أننى رغم رغبتى العنيفة إلا أننى لا أعرف الزنا..) ثم هتف من أعماقه والزنا حرام بابنت الكلب... لاشك أنها اعتقدت أننى أريد صيدها..

لم تفهمنى... لقد رفضت مضاجعة آنسة فريال الموظفة الجديدة فى الحى، ورفضت مضاجعة سوسن بنت صاحبة البيت، ورفضت مضاجعة كثيرات ممن أشتهيهن نظرياً على قارعة الطريق،ولم تهدأ ثورته إلا بعد أن ظهر الأوتوبيس القادم كالوحش الأحمر..

وكالعادة رمق موضع النساء فزج بنفسه وسطهن عَله يتمتع وسط الزحام بشىء من سمنتهن، التى تتحول فى ازدحام الأوتوبيس إلى مادة متعة شديدة الطراوة، وبالفعل نجح فى غرس نفسه بين سيدتين فغاص فيهما وغاصتا فيه، لم يبد قلقا وأبديتا سعادة ونشوة.

هنا قارن بين الذكرى التى مرت عليه منذ دقائق وبين الغير ممتنعات وهنا أرجع عنف الفتاة معه إلى شىء واحد (إنها قبيحة).

ظل الاحتكاك بينه وبين السمينتين ربع الساعة هى وقت وصوله إلى مكان عمله ورغم أنه يستطيع الذهاب إليه سيراً على

الأقدام إلا أنه يذهب إليه عبر الاتوبيس فهو يعتبر الأوتوبيس هو قدس الاقداس الجسدى، إذ يتمتع به باحتكاكات ساذجة يستخدمها مادة أحلامه عندما يعود ليلاً إلى مثواه، وهو قدس الأقداس الذى يعوضه عن اللقاء الجسدى فى بيوت الدعارة، إذ أنه لا يزال يردد (كله إلا الزنا..) وفى أخرى يردد (والله غفور رحيم)..

فى لحظة خاطفة ودع السمينتين بنظرة لهفة واقتلع نفسه من الوضع العبقرى.. والذى كان يجيد اتخاذه دائماً.. بينهما ليتركه لآخر انتهز الفرصة فاقتنص الموضع على الفور فلاحقه بنظرة حقد شديدة. دلف إلى بائع الجرائد واشترى الأهرام، وهو لا يعرف لماذا يصر على الأهرام ولكنها عادة تمكنت منه مثلما تمكن منه الاتوتوبيس.. ففى كل مسار يندم على شيئين ركوب الاتوبيس وضياع خمسين قرشاً عزيزة فى الصحيفة..

تأبط الجريدة.. أولج يديه فى جيبه وسار خطواته الواثقة نحو مكتبه وقبل أن يصل إليه أصدر أوامره إلى الساعى (رغيفان فول وكوب شاي) وبسرعة..

دار فى لمح البصر على أزياء زميلاته فى مجلس الحى وبخاصة

زميلاته فى حجرته فانتشى وهتف (العمل اليوم دسم...)

أخيراً وصل إلى مكتبه.. أودع الصحيفة وجه المكتب الخشن.. جلس فى هدوء وقد أطلق زفرة صاعدة..

دخلت فريال

صباح الخير

لم يرد فى بادئ الأمر بل أُخذ بردائها القصير وساقيها الجميلتين.. نظرت إليه نظرة أنوثة طاغية يسعرها رغبة محمومة وبادلها نظرة رغبة مكظومة.. وفى صوت ضعيف قالها: صباح الخير..

ضحكت فريال ضحكة ذات معنى، ألقت حقيبتها الجلدية فى دلع وجلست تواجهه ضاحكة..

كان يريد الهروب من عينيها.. كانت نظرتها إليه كأنها تعايره كأنها تهتف (يا عنيه)

فرد الصحيفة أمامه ودس وجهه بين أوراقها وهتف فى أعماقه منحلة..

لاحقته بضحكة رقيعة ضعيفة وصلته لتحرق ذكورته وهنا رفع صوته كأنه يريد أن يحرجها (مشروع توشكى هذا مشروع عظيم)

ضحكت ضحكتها الرقيعة الخافتة مرة أخرى وقالت (مشروع

عظيم جدا)

- تصورى سيزيد رقعة مصر الزراعية ويوفر آلاف الفرص للعمالة.

- واللاهى؟

- وشرق التفريعة أيضاً.. مشروع حضارى عظيم

- نصيحتى إليك.. لا تقرأ الصحائف.. القراءة بتبرد المخ.

صمت برهة وهو لا يدرى ماذا يقول، هنا أسعفه الساعى (أحلى إفطار)..

انتهز الفرصة ليغير مجرى الحديث، فقال لها وهو يأكل بنهم. تفضلى الفطار.

ردت عليه بكلمة واحدة..

- رِجيم

- ثم قامت خارج الحجرة.

أما هو فقد جفف حبات العرق التى تناثرت على جبهته.. أطلق زفرة حارة.. (مدام فاتن أحلى يا فريال...)

بعد دقائق كانت المكاتب عامرة بموظفيها وقد تناول كل منهم ملفاته يعمل بها حيناً ويسامر بها آخراً.. أما هو فقد قرر

عدم العمل اليوم فالصيد ثمين، هذه فريال بزيها القصير وهذه سميرة ببنطلونها الضيق وهذه حمدية وقد تدلى ثديها الضخم..

هذا بالإضافة إلى الجمهور الذى فيه ما لذ وطاب.. لقد صدمته فريال فى بداية اليوم وأزادت من توهج رغبته المشتعلة على الدوام، ولعل هذه الصدمة مع صدمة الغزال الشارد قبل صعوده للأوتوبيس هما اللتان غيرتا حالته المزاجية فأرجعت فكرة الزواج تلح على نفسه.. لم يكن معجباً بهذه الثورة الجسدية التى تأخذه يومياً لتحتويه تماماً وتلقيه آخر اليوم جثة هامدة...

وكم مرة حاول أن يهدئ من ولعه الجسدى أو أن يوقف غرس عينيه فى كل أنثى يراها ولكنه فشل تماماً..

دارت أفكاره فى رأسه حتى وصلت إلى ركن المال فى حياته.. كان يستطيع أن يكون ثرياً فهو يعمل فى مجلس الحى وإمضاءاته تستطيع أن تحوله إلى ثرى ولكن تربيته ومعرفته بالله كانتا تقفان حائلاً أمامه يهتف دائماً (كله إلا الغش ومن غشنا فليس منا) ورغم أنه لم يكن يصلى اللهم إلا نقرتى الصبح إلا أنه كان يضع حدوداً لحياته منبعها كلمتين (الله موجود)

وهذه العقيدة هى التى أسلمته إلى حقيقة الجنة والنار وهنا كان يهتف (لا أستطيع أن أتحمل النار فى الدنيا وفى الآخرة)

وهكذا كانت فاتن وفريال تفجران به بركاناً من الرغبة لا يطفئها إلا عودته مساءً إلى البيت.

ولكن على ما يبدو أن سحر فريال كان قوياً اليوم.. كان مكتبها يقابل مكتبه تماماً ومن فتحة المكتب رأى الأهوال منها...

وبين لحظة وأخرى كان يدفه رأسه فى الصحيفة تقرأ سطوراً لا يعرف معناها ثم يعود يغمس فى عينيه فى كل ما ظهر من جسد فريال وما ظهر منه كان ما يصيبه منها الزوج فى حجرة النوم.. هتف من أعماقه بعد أن أبعثت فيه ذكرياته مع سيقان مدام فاتن (يا بنت الكلب) أدرك أن فريال تشن هجومها عليه، فهى تعلم أن جسدها العارى يحوله إلى جمر وكانت من ثم تريد استفزازه وإثارته وإغرائه إلى أقصى درجة والحرب بينهما كانت على أشدها.. تهجم ويدافع.. تغرى ويتجاهل ولكن اليوم لم يكن ككل يوم.. كانت الإثارة فى ذروتها وقد فت فى عضده ذكرياته فى قدس الأقداس.. دفعته رغبته إلى مواجهة فريال.. دس نفسه فى حديثه

الساذج مع الموظفات بقصد إثارة اهتمامها... وبالفعل نجح أن ينفرد بنظرة منها ساعتها غمز بعينه إليها، اكتسحتها المفاجأة.. ضحكت بادلته الغمز.. أخذت تواً ملفاً من الملفات المكدسة على مكتبها وقامت.. إليه فقد كانت تريد انتهاز الفرصة، وعندما اقتربت منه قالت: تعالى خلفى.

بعد خمسة دقائق كانا يتحدثان فى البهو الرئيسى

- ماذا تريد؟

- شل السؤال تفكيره.. إنه وجهاً لوجه مع فريال.. صارعته الفكرة الراسخة فى أعماقه (الله موجود) فكرة فريال.. تلعثم..

أما هى فقد أرجعت تمنعه عنها إلى الخجل لهذا أرادت أن تستميله ببطء.

- لماذا لم تحلق ذقنك اليوم ؟

أخذه السؤال الثانى مرة أخرى.. تحسس خديه

- نعم.. عندك حق.

- أنت وسيم وأنت حليق.

- بعد برهة/ أشكرك.

- ماذا تريد لماذا غمزت لى يا شقى؟

ومرة أخرى يأخذه التلعثم اكتسته موجة خجل باردة ألقت به من قمة إثارته إلى حضيض الارتواء.

كان رسوخ العقيدة شديداً ولعل هذه العقيدة هى التى بعثت بهذا الخجل الذى أوصله إلى الارتواء..

عاود احتقاره لفريال واحتقاره إلى كل من يرتشون من حوله.. هتف (نعم أنا مخطئ فى ثورتى الجسدية ولكنى شريف ونظيف..

نعم أنا أحب النساء ولكنى لم أقرب الحرام.. نعم أنا فقير ولكنى لم أقرب الحرام... نعم أنا فقير ولكنى أحترم نفسى... نعم أنا أعانى ولكنى لست سارقاً أو غشاشاً..

نعم.. أنا احترق لحظياً ولكنى لن أحترق فى الآخرة..

كان عليه الآن أن يتخلص من هذا الموقف..

-فريال

- نعم

- أريدك أن تقرضينى خمسين جنيهاً.

- هل هذا ما تريد..؟

- نعم..

أخذها الغيظ.. نظرت إليه نظرة ازدراء وقالت فى صوت مكظوم:

- أنت وقح.. ثم سارت دالفة إلى المكتب...

أطلق زفرة حادة (كلبة.. مجرد كلبة) عاد إلى مكتبه يقرأ الجريدة وقد شعر لأول مرة أنها ذات قيمة له..

انتهى عمله اليومى بأن أتم الجريدة قراءةً.. ترك الجريدة على وجه مكتبه كالعادة وهرول إلى الأوتوبيس...

وكالعادة استطاع أن يزج بنفسه وسط النساء والله غفور رحيم.

كانت سعادته اليوم عظيمة فقد كان صيد الرجوع بالأتوبيس لا يقل دسامة عن الذهاب حتى أنه لم ينزل فى محطته بل آثر الركون إلى أن هبطت السيدة التى أولته ظهرها بعد محطته بثلاث محطات..

داهمه الجوع فقد كانت انفعالاته اليوم كثيرة.. تذكر أن الطعام الذى ينتظره بالبيت ليس شهياً فهو لا يجيد الطهو رغم انه يطهو منذ عقد أى منذ انتقلت والدته إلى الرفيق الأعلى إلا أن طهوه رديئاً، وعلى الفور توجه إلى محله الخاص الذى يلتهم فيه الكشرى...

ضخ بالكشرى نصف زجاجة الشطة كان يعلم أن الشطة

مثيرة للاحتقان وهو يبحث عن الإثارة بشغف.. التهم طبقين من الكشرى.. تجشأ فطاردت أنفه رائحة الشطة والخل والثوم..

لكمه الطعام فأخذ النوم يداعبه خاصة بعد أن مشى كثيراً بعد موقعة الرجوع فى الأوتوبيس...

هكذا هدأت نظراته إلى من حوله من المارات ولج إلى حارته الصغيرة وفى لمحة خاطفة لمح كل المنتصبات فى النوافذ...

(لا جديد تحت الشمس.. الأثداء هى هى لا تتغير.. شىء ممل)

صعد الدرجات الأربعين وتثاقل أمام شقة حبيبة أحلامه مدام فاتن.. وصل سمعه أصداء صياحها على أولادها.. تخيل صوتها يشجو فى لقاء معها.. وقف لحظات يستمع إلى صوتها ولكن ما لبث أن استفاق فأخذ يصعد فى تثاقل حتى وصل إلى الباب.. دلف إلى الصالة.. جلس على أحد الكراسى المتواضعة.. دلف بنظرته إلى أعماق الصالة.. تلك التى ورث محتوياتها عن أمه وأبيه.. تلاقت نظرته بصورة أمه المعلقة أمامه.. نظر إليها كأنه يسألها لماذا أجلبتينى إلى هذا العالم يا أماه.

لماذا ربتينى حتى وصلت إلى الجامعة حيث أحببت حباً فاشلاً ما لبث أن اندثر بعد الجامعة؟

لماذا أصررتِ أن أكون جامعياً؟ هل لأتحول إلى ملفس كبير؟

هل لأتحول إلى عنصر من عناصر الموظفين فى الأرض؟

ضحك ضحكة واهنة بينما ينظر إلى أبيه الأنيق فى صورته.. تذكر أباه الموظف الكبير بوزارة المالية.. تذكر المصروف الزهيد الذى تعود عليه منذ الصِغر.. موظف ابن موظف.. هكذا لخص قصته فى الدنيا.. ولكنه رغم ما يعانيه إلا أنه كان سعيداً بهما.. كان ينظر إليهما بفخار فد غرسا به ما يعتقد أنه يقيم به أوده (طهارته)، ترحم عليهما.. قام فى هدوء إلى حجرة النوم.. خلع قميصه والبنطلون ضبط المنبه ليقوم الساعة السادسة... أخذ وسادة وغرسها بين رجليه.. وراح فى سبات عميق...

هوى بيده على المنبه.. اغتسل... ارتدى نفس القميص والبنطلون أسرع إلى القهوة..

اتخذ مقعداً لا يقل براعة فى موضعه عن تلك المواضع التى

يأخذها بين النساء فى الاتوبيس استغل تأخر زميله فى القهوة عن الحضور وراح يرشف الشاى مع المرور على جسد السائرات وفى كل اتجاه خاصة سيقانهن..

وأخيراً جاء زميله.. لم يتخل عن مقعده... فتحا الطاولة وبدأ اللعب.. كان الصيد الليلة كثيف مما أدهشه.. فساق هنا وهناك وثدى معلق هناك.. وفتاة فى عمر البلوغ تجلس أمامه مع صديقها وقد ارتدت رداءً ضيقاً احتار كيف ارتدته من فرط ضيقه وفى لحظات عاش حلماً ورديا مع تلك الفتاة فخسر دوره فى الطاولة..

كان صوت أم كلثوم يبعث الدفء فى أنحاء القهوة رغم أن الصوت كان منخفضاً، ولعب الغناء معه فى أحلامه معها..

وبعد ساعة من الأحلام.. ضم زميله شقا الطاولة

- لا، أنت الليلة فى عالم آخر

- هل رأيت أجمل من هذه الفتاة من قبل؟

- يا رجل.. اعقل انها فى سن أولادك.

- الأحلام ليست لها سن يا مغفل

- قلت لك تزوج

- وألف مرة قلت لك لو كان الفقر رجلاً لقتلته

- وهنا قامت الفتاة.. أطلق زفرة حارة

- ألف خسارة

انتهى وقت القهوة فى تمام الثانية عشرة وهكذا أصبح عليه أن يغادرها.. زميله مضى منذ ساعة إلى زوجته أما هو فقد جلس الساعة بمفرده وقد راح يستمر فى مهمته المستمرة ألا وهى مراقبة سيقان السائرات وبكل عناية..

ثم يمزح من هذه الرؤية بأحلام جسدية بين الحين والآخر.. وبدأ رحلة العودة..

كانت الطرق فى مثل هذه الأوقات قليلة المارة كثيرة الساقطات وكان يلاحظ كل شىء فى هدوء عجيب وكانت متعته فى أن يلقى نظرة استجابة إلى ساقطة فما تلبث أن تستجيب وساعتها يصدها فى قسوة كأنه يؤكد لنفسه أنه مازال قوياً.. ومرة أخرى يدلف إلى قلب حارته ويعبرها وقد زكمت أنفه رائحة العطور ومن ثم يلتهب

خياله ويطلق زفرته الحارة.. صعد الدرجات الأربعين وكالعادة وقف أمام شقتها ولاحظ أن الشقة تعوم فى الظلام وأدرك أنها قد دخلت حجرة النوم وساعتها أطلق كلمته الشهيرة.. يا ولاد الكلب ومع دخوله شقته فى نهاية اليوم كان عليه أن يؤدى المهمة الأخيرة فى يومه فقد كان عليه أن يتخلص من جنون رغبته المتواصل ومن مادة أحلامه الملتهبة ومن آثار قدس أقداسه.. كانت المهمة الأخيرة هى أن يحلم بلقاء مع مدام فاتن صاحبة أجمل سيقان فى مصر وينتهى هذا اللقاء الحالم بتلك العادة التى احتوته واحتواها..

ساعتها يطلق زفرته الحارة وتكتسحه أمارات الارتواء والبرود.. ساعتها يحتقر الجسد والسيقان والمرأة والرغبة ومدام فاتن وأيضاً فريال..

وساعتها يحمد الله أنه لم ينساق إلى المحارم.. كانت هذه العادة التى أدمنها تنقله من عالم الرغبة إلى عالم يزهد فيه بكل شىء.. وعندما انتهى من المهمة الأخيرة صدم وجهه بتيار من الماء البارد فاستفاق قليلاً... اتجه إلى النتيجة الورقية المعلقة أمام سريره.. انتزع إحدى ورقاتها وتركها لتلتقى مع نظيراتها الملقيات

أرضاً... صاح بينما يمر بيده على كرشه الناتئ وشعره الذى بدأ يكتسى باللون الفضى صاح (هكذا تسقط أوراق العمر).. (هكذا تمضى أيام العمر).. أعاد ضبط المنبه ليبعث جرسه فى تمام السابعة صباحاً، وفى تمام السابعة صباحاً..

انطلق صوت المنبه رتيباً حاداً.. وكالصاعقة هوت يده على المنبه فأسكته على الفور.. حثيثاً أخذتا عيناه تتفتحان ليرى الحجرة من وراء ضباب كثيف.. لم يكن فى حاجة إلى النظر إلى المنبه فانطلاق الجرس الملعون يعنى أن.....

(٢)
الكومبارس

وجاءت اللحظة التى كان يتمناها كل ليلة، ليلة تحية الجماهير. كان التصفيق يبعثه من جديد ولم لا وهو عاشق المسرح ومنذ نعومة أظافره.. وهو نفس التصفيق الذى يخفف آلام كونه مجرد كومبارس فى فرقة مسرحية حيث آلامه وآلامه النفسية وآلام مؤخرته التى يُضرب عليها يومياً بالعصا فتنساب الضحكات.. إنه يعلم أن قصة حبه للفن لم تجعل منه سوى مهرجاً، فقد فشل فى أن يكون نجماً كما كانت تقوده أحلامه.

ومضت الومضة وانتهت تحيته، وأقبلت الراقصة البطلة لينهال التصفيق ثم أقبل البطل الذى يضربه كل يوم لينهال التصفيق مرة أخرى، ثم يسدل الستار ويذهب الجميع إلى حال سبيله.

ولكن الليلة لم تكن ككل ليلة فقد بالغ البطل فى ضربه وآلمته مؤخرته ألماً شديداً.. وكأن الألم أبعث الحزن داخله وجدد فيه

مشاعر الرفض لما هو فيه من مهانة..

أخذته على غرة رياح بارده فور خروجه من المسرح دمعت عيناه.. لاحظ عشرات المعجبين يلتفون حول البطل ليهنأوا بكلمة منه فى أوتوجراف.

نالت منه نظرات التجاهل، أدار وجهه شطر طريقه، أطلق زفره حارة حزينة.. أخرج مفتاح سيارته الصغيرة وكالعادة لم تدور السيارة.. كان يعلم أن قصة كل يوم ستحدث.. هتف بأسماء بعض عمال المسرح.. رفعوا السيارة عدة أمتار.. دارت، ودار معها خلده.

دار شريط حياته أمام زجاج السيارة المندى.. أبوه رجل الأزهر وإمام المسجد كان حلمه أن يخلفه فى المشيخة ولكن حبه للفن كان طاغياً، فاكتسح رغبة أبيه وشغله عن دراسته حتى تخرج من إحدى المدارس الفنية المتوسطة. تساءل ألم تكن رغبة أبى أجل أليس الأزهر أجدى من مجرد كومبارس تُضرب مؤخرته يومياً لإضحاك الناس؟ ترحم على أبيه ولكنه عاود اليقين لحبه للفن..

تذكر حبه الكبير الذى ولد منذ صباه لنرجس جارته وكيف عاش هذا الحب السنوات الطويلة دون أن يموت، ذاك الحب الذى

تُمم بالزواج ولما جاءت محطة الزواج اعتصره الألم فقد تذكر شيئاً كاد أن ينساه، تذكر أنه لا ينجب وتذكر كيف تمسكت به نرجس رغم عقمه، تذكر الحب الكبير الذى أصبح الابن لديهما.. وتذكر أن القدر قد أعطاه الولد بأن تطوع أن يربى ابن أخيه سالم بعد أن ماتا أبوه وأمه فى حادث سيارة..

تذكر كيف سهر على تربية سالم حتى خرج من كلية الزراعة منذ عدة سنوات..

كانت ابتسامة سالم تعنى له حصاد العمر وتعنى له ذلك التخفيف الهائل لآلامه التى احتوته على أثر العقم والفشل الفنى..

وتذكر صدمته الكبرى فى مقتبل عمره على أثر هزيمة ١٩٦٧ تلك الهزيمة التى اقتلعته من جذوره وقصمت الثورة فى داخله..

تذكر كيف أنه خرج مع أبيه بعد التنحى إلى الشارع صارخاً.. سنحارب

تذكر احتضان أبيه له وهو يردد هذه مشيئة الله يا بني

ولكنه فى ذلك الوقت أدرك أن انحراف الثورة كان سبباً فى النكسة ولكن النكسة لا تعنى أن نقتل زعماءنا أو أن نتقبل التنحى.

لهذا فقد انطلق فى شوارع القاهرة باكياً صارخاً.. لا لا تتنحى

سنقاتل. سنقاتل.. كان ينادى عبد الناصر من أعماقه وكيف لا وهو الكاريزما التى اخذت مصر إلى العالمية. كان يناديه بأن يستمر لأن عمر مصر سبعون قرناً بينما عدوها الأغبر لم يولد بعد بحكم التاريخ..

كانت الشوارع فى هذه اللحظة من الليل خالية من المارة فانطلق بذكرياته المتوائمة بآلام مؤخرته بينما المساحة تطيح بقطرات المطر البسيط الهاوى على نافذة السيارة.. كان ساعتها يعلو كوبرى ٦ أكتوبر.. وما أن اعتلاه حتى تذكر ذلك الشىء الذى يعتز به ويعتبره ذروة سنام حياته، إنه وأن كان عقيماً وإن كان كومبارس ولكنه كان جندياً ممن عبروا قناة السويس فى حرب رمضان.. أطلق زفرة حزينة وابتسامة باهتة.. تذكر الحرب والعبور والقتال وخط بارليف والمدفعية والطيران والدبابات، تذكر لحظات رفع العلم على سيناء وتذكر ذلك النداء المدوى الذى اهتزت له أركان سيناء الله أكبر.

تذكر كيف كان يصر على أنه من جيل أكتوبر وليس من جيل النكسة وتذكر بعدها أنه خرج إلى العالم بعد الحرب يحلم بالحب والفن.

كان كل شىء بعد الحرب يناديه... الانتصار الذى صنعه مع

الآلاف كان يناديه بأن يعطى أكثر فالجبهة كانت تطالب بمزيد من التضحيات والجبهة الداخلية كانت تتململ بعد موت الزعيم الخالد وبعد العبور.. كان المجتمع يتطلع الحياة الأفضل بعيداً عن الشعارات التى سقطت مع النكسة.. كانت مصر متوهجة مستعدة أن تواجه العالم أجمع وتحارب العالم أجمع لفرض كلمتها مرة أخرى.. كان هذا إلتقاء الطموح الوطنى مع طموحه فى حياته. تزوج بعد خروجه من الخدمة العسكرية مباشرة وقد طار فى علياء حياته بجناح الحب وجناح النصر... ولكن العقم طارده حتى فى أحلامه...

ولم ينفذه من هذا الجدب إلا تولية تربية ابن أخيه.. أن سالم يعنى له الخصوبة الرسالة الابن، الحب، التربية..

ومع الأيام كانت أحلامه بأن يكون نجماً مسرحياً تتضاءل، إنه مصمم أنه موهبه فنية كبيرة ولكن الحظ كان يعانده.. إنه يتذكر تماما بداية الأفول له.. كانت زيارة مصر للقدس هى بداية الأفول.. كان النصر الذى حلق به عالياً ينهار يتحول إلى رماد، خرج إلى الشوارع بنفس الحماس الذى خرج به فى يوم التنحى خرج ليقولها بأعلى صوته.. لا. خرج يحمل بين يديه أكفان كل من استشهدوا

فى الحروب السابقة.. كان يصرخ وكل مشاهد الحرب ماثلة أمام عينيه كان يلعن الضعف والانكفاء والهزيمة، كان يعلن أن الأمة تستطيع أن تسير فى طريقها إلى النهاية، وأن الأمة تستطيع أن تحارب عشرات الحروب القادمة وأن الأمة عن بكرة أبيها تريد الاستشهاد مع الكرامة ولا تريد الحياة مع الذل إنه يتذكر تماماً هذا اليوم يوم أن استسلمت مصر ويذكر أن هذا هو اليوم الذى بدأ معه الانهيار الشامل لحياته... أضحى كل شىء بلا طعم.. لم يعد هناك موطن للنضال أو الكرامة أو التضحية.. فقد مذاق الحياة ومع الأيام تحول إلى كومبارس حزين فى بعض الأيام فيلسوف وفى بعضها مفلس وفى آخرها جندى كسير يحمل الراية وحده فى محيط بائس لا يعرف ماذا يريد.. ولكن سالم كان البلسم لكل أمراضه.. لقد رباه على ضراوة المقاومة والثقافة الرفيعة، إذ أنفق على مكتبته فى الدار مئات الجنيهات وبالفعل خرج بالدنيا بسالم المهندس الزراعى المثقف.

وصل إلى الدار.. أوقف محرك السيارة، استمتع لحظات بهدوء ما قبل الفجر، تحسس مؤخرته، تأوه اعتصرت ملامحه روح الغضب

المكبوت.. خرج من السيارة الصغيرة.. لاحظ على غير العادة أن مصباح حجرة سالم مضاء لعل سالم ينتظره، إعتقد أن الأمر قد يكون لخطوبته من نجلاء جارته والتى علم بفراسته أن سالم يحبها وأنها تحبه..

هنأ نفسه بهذا الموضوع فهذه فرحته الكبرى يوم أن يكون سالم زوجاً وينجب ولداً يسميه باسمه، ربما يكون هذا الاسم والابن امتدادا له وهو الذى لا امتدادا له..

ولج إلى منزله، وكما توقع وجد سالم فى إنتظاره.. ولج إليه، لاحظ علامات القلق تعتصره.. سأله على الفور ماذا بك؟

لم يجب سالم على الفور وإنما أمعن النظر فيه وقال فى نبرة حزينة انتظرك منذ ثلاثة ساعات.

إلى هذا الحد الأمر مهم؟

- نعم.

- ما هو؟

- أننى أسعى إلى السفر منذ أعوام.

- بعد تخرجك مباشرة كنت تود الذهاب إلى كندا.

- ولكنى فشلت.. أنا مجرد مهندس زراعى وفى كندا لا يحتاجون إلى أمثالي

-لقد تناقشنا فى هذا الأمر مراراً.. أننى أرفض الهجرة.. مصر أعظم بلد فى العالم.

لاحقه سالم فى سرعة.. مصر كانت أعظم بلد فى العالم.

هوت كلماته كالصاعقة عليه.. ساد الصمت برهة، استجمع قواه..

- ماذا تريد يا سالم ؟

- منذ عام كامل وأنا أبحث عن الفرصة وأخيرا وجدتها.. فرصة السفر. الحمد لله.. هل ستسافر إلى الخليج؟

- لقد حصلت على السفر بعد عدة زيارات إلى وكيل الوزارة كنت أشرح له ظروفى وأخيرا توسط لى ونلت بالفرصة..

- أين ستسافر؟

- إلى إسرائيل

تساءل فى حسرة.. إسرائيل ؟!!

جاءه الرد فى حزن... نعم.إسرائيل.

- يا للعار.. ألم تجد فى العالم كله إلا إسرائيل.. العدو الأغبر.

-لم تعد إسرائيل عدواً لنا.

- إسرائيل ستظل عدواً لنا إلى أن نزيلها من الوجود...

ابتسم سالم ابتسامه باهتة. أننى أعلم أن إقناعك مستحيل تماماً كما كنت مثلك شديد المعارضة لإسرائيل، ولكنه قدر لنا..

- هل تسمى ذهابك إلى العدو قدراً لنا؟ إنه خيانة، خيانة عظمى..

- عماه.. استحلفك بالله أن تكف عن الشعارات.. لقد سقطت مثل هذه الكلمات أمام الأزمات الطاحنة التى تتعرض لها..

سقطت المقاومة أمام التطبيع وسقطت الإرادة أمام الفقر وسقط النصر أمام الفساد وسقطت الراية أمام الضعف.

- أنت الذى سقطت.

- أنا لم أسقط إنما سقط كل ما هو لى.. الحواجز تفتت أمام قوة السلاح النووى.. والخوف سحق العرب فركعوا.. الآن أنت تستكثر عليّ أن أضعف أنا الآخر.. أن أركع أنا الآخر.. يا عماه الكل ركع...

- مصر لن تركع.. أنها تقاوم كل ضغوط الدنيا..

- لقد انهارت الأمة يا عماه...

الأمة كلها.. الإسلامية قبل العربية والعربية قبل دول الطوق....

عماه أننى ذاهب إلى إسرائيل بعد أن فشلت أن أكون إنساناً محترماً.. عماه، لقد أصبح السفر إلى الخليج بعد مذبحة الحرب الثانية أمراً مستحيلاً وحتى إن سافرت إلى الخليج.

سأكون ذليلاً عبداً منقوص الحقوق والحريات... إننى قررت أن أعيش فى إسرائيل..

سأذهب إلى إسرائيل فى بعثة زراعية ولن أرجع إلى مصر. إن إسرائيل هى البقعة النظيفة فى محيط غاية فى القذارة.

- إن إسرائيل محرقة لك ولكل المخدوعين.. إن مصر قاطعة فى سرعة

- عماه لا تقل لى أن مصر هى أم الدنيا وأن العروبة جامعة وأن الإسلام لا يبيح الذهاب إلى إسرائيل.... عماه.. إننى زرع شيطانى.. شب فى الزمان الخطأ.. ما هو الجميل فى حياتى؟

لا شىء.. حب فاشل. الفقر لو كان رجلاً لقتلته.. وطن فيه الغنى يزداد ثراء والفقير يسحقه... الفقر أكثر فأكثر...

كرامة تحت أقدام العسس.. دور تاريخى أصبح حبراً على ورق... الفساد ماء والقهر هواء والحياة كلها لا تساوى شيئاً.. لماذا

نعيش فى وطن من المحيط إلى الخليج، وطن يحتضر. يلتهم بعضه بعضاً.. عراقه محاصر وخليجه مستباح وقدسه ضائع وإسرائيل تستعد لقيادته بعد شهور...

- إسرائيل لن تقود الشرق الأوسط

- أنهم يدفنون القضية الفلسطينية يا عماه، وساعتها ستنطلق إسرائيل يدعمها العالم لتقيم سفارات فى كل البلدان العربية.. وكل معترض سيتحول إلى دميه فى جزر معزولة يحكمها القهر والبطش.. إن العرب أصبحوا مؤهلين لقيادة إسرائيل لهم إن رضوا وإن أبوا.

- أنت توهم نفسك بأوهام لتبرر هزيمتك.. أنتم جيل مهزوم.. جيل زيارة القدس المشؤمة..

لقد عشنا فى ظروف أصعب بكثير مما نحن فيه الآن.. عشنا مر النكسة التنحى ولكننا لم نفقد الثقة فى انفسنا، أو فى وطننا أعدنا بناء الجيش.. صنعنا حائط الصواريخ.. عبرنا.. حاربنا.. وانتصرنا..

- لن يسمح العالم بانتصار جديد على إسرائيل.. لقد انتهى عهد الحرب.. عهد النضال ليبدأ عهد جمع المال وتكديسه فى بنوك الغرب.. لقد بدأ عهد الاستسلام المهيمن وكل ما نراه من سياسات

هى تمثيليات مرسومة حتى لا تنهار ثقة الشعوب فى حكامها.. كل شىء مزيف.. الكرامة.. السياسة.. الانتخابات.. الاقتصاد.. الصحافة.. حتى الفن اكتسحه.

الراقصون والراقصات.. أنت يا عماه.. أنت بكل طموحك الذى كان وبكل تاريخك العسكرى فى حرب أكتوبر.. أنت تعمل فى مسرحية خلف راقصة.. منذ متى كانت الراقصات تتقدمن الصفوف وتحصد التحيات.. عماه.. إن إسرائيل هى الحرية وهى العدو وهى الكرامة وهى الرعب النووى وهى الانتصار وهى القذارة.. إننى أعرف أن الذين يحكمون إسرائيل مجرد سفاحين أقذار لا يتورعون حرق العرب جميعاً برؤوسهم النووية لو طالوا ذلك ولكنهم على مقدار كامل من العزيمة والمذابح والتحايل كونوا دولة وأسسوا حياة حرة يتداولون فيها السلطة دون انقلابات عسكرية، ودون إهدار لحقوق المواطن اليهودى..

عماه.. عليك أن تعترف.. أنتت وكل من يعادى إسرائيل أن إسرائيل رغم قذارتها وسفاحيها أصبحت بقعة نظيفة فى محيط يحتضر...

- إن إسرائيل ليست حرة وإنما تتظاهر بهذا أمام العالم

لتستعطفهم، لتبتزهم.. إسرائيل بقعة دم كبيرة تعتصرها آلام شتى بين يهود شرقيين وآخرين غربيين.

إسرائيل مجتمع ممزق بين جنسيات العالم كله وقد هزمها السلام كما هزم السلام العرب.

- نحن مختلفان يا عماه.. وأننى أدرك ذلك لهذا أخفيت عليك أمرى حتى وصلت إلى هدفى..

- هكذا ضاع عمرى..

- وهكذا ضاع عمرى أنا الآخر.. عندما سأهبط إلى إسرائيل سأقتلع من جذورى.. ستعتصرنى الآلام آلام آلاف الشهداء.. آلام أطفال الحجارة.. آلام حزب الله فى لبنان.. آلام الحصار فى العراق.. ولكنى أريد أن أعيش محترماً لا أخشى أحداً.. أريد أن أكون حراً.. أريد أن أطارد الخوف الذى يلاحقنى. أريد أن أقهر القهر الذى ولدتُ به.. أريد أن أكفر بالعروبة التى أنجبت هزيمة قرن كامل وأضاعت فلسطين، أريد أن أذهب إلى إسرائيل أعيش بلا خوف وبلا قهر وبلا عسف.

- أنت مجنون ستكون مرصوداً محاصراً..

- عندما يمر الوقت سيعلمون أننى ابن للسلام أو الاستسلام وأننى سأعيش معهم كما يعيش عرب إسرائيل، بل سأتزوج منهم وبمرور الوقت سينتهى الحاجز النفسى.

- لقد هزمتُ إسرائيل فى حرب العبور ولكنهم ردوا عليّ فى بيتى.. انتزعوك منى.. كيف؟ لقد ربيتك على أضواء أكتوبر وعلى أصداء الثأر الذى لابد أن نثأره - عماه - لقد التهم الفقر الثأر وأنت وكل المدافعين عن فكرة الحرب والجهاد لا تريدون أن تعترفوا بما أنجزه اليهود من انتصار ساحق على العرب على مدى قرن كامل..

لا تريدون أن تعترفوا بأن اليهود أقاموا حضارة عنوانها حقوق الإنسان اليهودى ورايتها الحرية وحارسها جيش الدفاع مع الموساد...

لقد أصبحتم جزر معزولة فى محيط هادر بالاستسلام لماذا لا أستستلم أنا الآخر.. أنا لست نبياً ولا قديساً. الشيوخ أفتوا بأن الاستسلام للأمر الواقع قرآنا وانجيلاً وأيضاً توراة.. عماه.. لقد كسب التلمود المعركة وأنهار الأمر.. قُتل من عبر القناة فى حرب العبور، تخلى الجيل الذى انتصر عن انتصاره عن نضاله، وتحول إلى هلام فطاشت ضرباته الكل ركع فى حرب التسليح والقيادات نالت منه

الأقمار الصناعية وأسلحة الشبح والليزر.. عماه.. لم يعد ثمة جيل يقاوم.. إنها جزر ضعيفة تصرخ ولا مجيب لها.

- فى يوم من الأيام ستندم يا سالم

- إنى مسافر خلال شهر ولن أعود قبل أعوام

وهنا تصاعد آذان الفجر يشق هدوء الليل فلاحقه:

- أقسم لك يا سالم.. أقسم لك بهذا الآذان أننا سنحرر الأقصى ونعلم اليهود درساً لا ينساه الغرب.

- وإلى أن يأتى الجيل القادر على ذلك سأعود أدراجى إلى مصر أما الآن فلا.. لا وألف لا..

شعر أن الكلام قد انتهى.. نظر إلى سالم نظرة حزينة فأدرك فى عينيه وحشة وحزن عميق وهزيمة مخزية.. أدرك أن الثوابت قد تبدلت وأنه ربما يكون من رجال الحرس القديم فى كل عهد، هذا الحرس الذى يقاوم حتى الموت فيموت دون أدنى أثر.. أدرك أنه هُزم فى عقر داره.. أنزوت ابتسامة شاحبة إلى ركن قصيّ فى شفتيه.. خرج من الحجرة متهالكاً، متمتاً فى نفسه (لقد هُزمنا).

ولج إلى حجرته.. كانت الزوج فى قمة عنفوانها لأنها كانت تعلم

أن الليلة هى إحدى الليلتين اللتين يحدث بهما اللقاء.. ذاك اللقاء الذى تشتاق إليه مع حبيبها أدرك بنظرة منه رغبة الزوج التى لا تُنسى.. صمت حاول أن يبتسم ولكنه سرعان ما انقشعت الابتسامة إذ عاودته آلام مؤخرته وآلام قلبه الكسير من سالم. ارتدى الجلباب.. سار بخطوات بطيئة حيث توضأ.. دخل فى الصلاة.. كان يشكو بثه وحزنه إلى الله كان يشكو كل شىء.. الفساد، القهر، الفقر، الفشل، الاستسلام، الذل، آلامه دعا الله من أعماقه أن يعود لِسالم، إلى رشده، وأن ينصر الله العرب وهو النصر الذى لا يشك فى كونه قادم... ختم الصلاة والدموع تترقرق فى عينيه.. ولج حجرة نومه، استسلم لرغبته فى اللقاء.. هم بها وهمت به ولكن رجولته خانته.. كان الألم يعتصره وشعوره بالهزيمة المدوية فى سالم يسيطر عليه.. اعتذار لزوجة المذهولة المتسائلة العينين ماذا حدث لك؟ (لم أرك بهذا الوهن) أدركت أن حبيبها مثقل بهموم الدنيا.. راحت تواسيه وتخفف عنه ما ألم به، أما هو فقد انسحب مهزوماً.. ودعته بنظراتها المواسية حتى خرج من الحجرة.. كان يريد الانفراد بنفسه.. كان فى حاجة إلى أن يلتمس طريقاً إلى قوته المعهودة، دخل حجرة الاستقبال.. تلك الحجرة التى تُعلق على جدرانها صوره وذكرياته.. كان صوت المطر الرتيب يؤنسه

وهو ينهال على النافذة.. حَدّق بصورته مع زملائه بزيه العسكرى أبان الحرب.. أطلق زفرة حارة.. بكى الأيام السالفة، بكى النضال على ضفة القناة، بكى أخاه الذى توفى وترك له (سالم)، سالم الذى سيذهب إلى إسرائيل ليعيش بها حياة حرة كما يريد.. تسرب إليه شعوراً طاغياً بالعجز، ومنذ ذلك اليوم لم يستطع أن يلتقى بزوجه، تلك الزوجة التى تقبلت ما أصاب زوجها بصبر ولم تبد له أى امتعاض.. تأوه فى حزن بينما يودع سالم وهو فى طريقه إلى المطار.. اختلط ألم مؤخرته بألم نفسه.. تساءل وهو يحتضن (سالم) للمرة الأخيرة.. من أى جيل أنا؟ من جيل الانتصار أم الانكسار ؟ من جيل الحرية أم القهر من جيل الفحولة أم العجز؟ من جيل الألم أم السعادة؟

من جيل الصمود أم الانهيار؟ ثم تساءل ماذا يحدث فى بلاد العرب وما نهاية كل هذا اليأس؟ ولكن رغم كثرة التساؤل فقد تشبث بشىء واحد فى فلك حياته المنصرمة.. ضغط على الكلمات القادمة بقوة من فولاذ.. صرخ فى أعماقه حتى لا يسقط صرخ وهو يودع سالم (أنا الجيل الذى عبر أنا الجيل الذى عبر)..

(٣)

أ – المـُغامـِرة

كانت السيارة تنهب الطريق. السيارة بيضاء ماركة بيجو الفرنسية، أجرة تحمل سبعة ركاب. كان أغسطس ينفث قيظه فوق رءوس الجميع لهذا فالنوافذ الزجاجية فتحت على مصراعيها بالسيارة، ورغم ذلك فقد تصبب العرق على وجوه الجميع. كانت فى المقعد الأول من مقاعد السيارة القطيفية الثلاثة، بجانبها رجل فى العقد الخامس من عمره وقد انهمك فى قراءة الصفحات الرياضية فى إحدى الصحف المسائية وبجانبه كان السائق الذى طالما راوغ السيارات على الطريق وقد ثبت قدمه على ضاغط البنزين ليجرى بالسيارة كالريح.. ضايقها الحر وإهمال من حولها لها فقد كانت جميلة وقد أدركت ذلك وأدركت أيضاً تلك السلطة السحرية على الرجال من أول نظرة لها، لهذا فقد كانت تطلق من آن لآخر زفرة حارة كأنها تعانى الحر ولكنها كأنها رسالة ضجر تبثها إلى كل الركاب

المتخلفين عن سحرها.

وفجأة عبثت السيارة وأخذت تصدر أصواتاً غريبة مما اضطر السائق إلى التوقف على جانب الطريق هبط كل الركاب صارخين، ماذا حدث؟

بعد دقائق خرج السائق عليهم بقوله: السيارة لن تتحرك متراً واحداً لقد تعطلت.

اكتسحهم التذمر وتعالت الهتافات:

- هل هذا كلام؟

- أنت سائق مهمل.. كان ينبغى أن تكشف على السيارة قبل السفر.

ماذا سنفعل ونحن على قارعة الطريق؟

أما هى فقد انفجرت.. ما كل هذا الآن؟ التعطل.. الحر.. الزحام.. كل شىء مقرف مؤسف.

ولكن السائق لم يستسلم فصرخ فيهم.. وهل أنا من تعمد هذا العطل..؟

هذا قدرنا الأسود فى هذا الحر الشديد.. كل ذلك غير مهم الآن الأجرة..

فصرخت: أى أجرة يا نصاب؟

أدرك السائق حالة التمرد فآثر أن يكون موضوعياً: إن الأجرة من القاهرة إلى المنصورة ثمانية جنيهات، وها نحن قطعنا ثلثى المسافة أى أن حقى حوالى خمسة جنيهات.

وبعد مجادلة قرروا دفع أربعة جنيهات فقط لا غير وكان قاد الحملة هى بذاتها وبقدراتها.

ولأول مرّة فحصها السائق بشدة بعد أن جَمّعت الركاب حول رأيها وكأن نظرته تتوعدها، ولكنها أطلقت نظرة سخرية شديدة ودست يدها فى حقيبتها السوداء الصغيرة وأخرجت الجنيهات الأربعة وغرستهم فى جيب السائق وهى تردد المرة القادمة كن أكثر حرصاً.

لم تكترث بعد ذلك لا بالسائق الحانق ولا بالركاب الحائرين وإنما حملت حقيبتها الصغيرة السوداء بيمناها وحقيبة ملابسها المتوسطة الحجم فى يسراها بعد أن ثبتت نظارة الشمس الأنيقة الإيطالية على عينيها. الطريق امتدت أمامها عبر الأفق وقد احتضن الأسفلت شقا النيل أو أحد روافده والحقول الخضراء، لم يكن أمامها سوى حل واحد أن تمشى فى الطريق إلى أن تجد حافلة أو سيارة أجرة

بها مكان شاغر.. بعد ربع ساعة توقفت بجانبها سيارة مرسيدس حمراء وقفت لتدرس الموقف.. هبط زجاج النافذة فلطمتها موجة هواء رطبة رائعة تهلل لها أساريرها، ومن خلف النافذة وجدت وجه جامد لرجل فى العقد الخامس وقد اشتعل رأسه شيباً، يرتدى بذلة داكنة أنيقة ورباط عنق أحمر زاهى قد أحاط عنقه.. لأول وهلة لم يدر حوار بينهما كأنهما يدرسان الموقف، بعد أن تلاقت العينان ابتسم فى هدوء كأنه قد أدرك شيئاً وقال: تفضلى.. اركبى.

صمتت لحظات ثم سألته أنا طريقى إلى المنصورة وأنت؟

رد بمجرد النظر: طريقى طريقك.

فلاحقته: هل ستذهب إلى المنصورة؟

رد وقد بدأ يقول بعينيه الكثير. طريقى طريقك يا جميلة.

أسعدتها كلمة جميلة أول الأمر ولكنها أدركت أنها تحمل عدة معانى دار فى نفسها حوار سريع كان حاسماً فى اتخاذ القرار فقالت عل الفور لا تتعب نفسك، طريقى ليس طريقك.. ثم حملت حقيبتها وسارت غير عابئة به..

هوت كلماتها كالصاعقة عليه ولكن سرعان ما كظم غيظه

ومد نظره عبر الأفق يفكر كأنه يراجع حساباته، تمكن فيها وقد بدأ من رأسها الملفوف بوشاح أبيض إلى عنقها الذى يداريه فستانها الأزرق حتى إلى ما تحت الركبة مباشرة.. تعلقت عيناه بخصرها ثم بأردافها ثم بساقيها الرائعتين تمتم بشيء ما مفاده.. مستحيل.

ولكنه تماسك وقد قرر شيئاً ما.. ضغط على ضاغط الزجاج فصعد الزجاج ذاتياً ثم ضغط على ضاغط البنزين بقوة فانطلقت السيارة محدثة دوياً وصراخاً ودخاناً إثر الاحتكاك الشديد بين الإطارات والأسفلت الساخن.

أما هى فقد ابتسمت ابتسامة الرضى، بعد ربع ساعة أخرى توقفت السيارة الثانية كانت سيارة مصرية الصنع لها أصل إيطالى، توقفت وقد أطلق سائقها عدة تنبيهات من الكلاكس وكما حدث بالمرة السابقة حدث بهذه المرة..

التقت العيون أولاً.. كأن كل منهما يتفحص الآخر وبعد برهة ابتسما وبدون كلمات فتح لها الباب وولجت.

تفحصته جيداً، فى العقد الرابع، متوسط الطول، قمحى، حليق اللحية والشارب ملامحه تموج بالقوة والشباب، يرتدى قميصاً أزرقاً

فاتح وسروالاً أسوداً وقد وضح أنهما غاليان الثمن.

ارتسمت على وجهه ابتسامة ثقة وتطلع فقال وقد أردا أن يفتتح الحديثة أهلاً وسهلاً.

ردت فى خفة ظل: أهلاً بك.

- ما طريقك؟

- المنصورة.. وأنت؟

- نفس الاتجاه تقريباً.

- ما معنى تقريباً؟

- معناها واضح.. تقريباً تعنى تقريباً.. ليس هذا هو المهم.

- وما هو المهم؟

- أن نتعارف

- إسمى حنان.

أدرك من أول وهلة أن هذا ليس اسمها الحقيقى ولكن لم يهتم وما أن هم بالكلام حتى أدركته.

- كأنى رأيتك من قبل.. أين لا أتذكر؟

كان ينوى أن يعاملها بالمثل وأن يدعى اسما غير اسمه ولكن

هذه المعالجة جعلته يصارحها رغما عنه بحقيقته.

أنا هانى العزازاى.

- فعاجلته.. الصحفى؟

- نعم

كنت أشعر من أول وهلة أننى أعرفك.

- صدق حدسك

- سعد لهذه البداية الموفقة ولكن كان يفكر فى شىء ما هو لماذا لم تقل لى اسمها الحقيقى ؟؟ صمت بعد برهة وبدأ فى معاودة الاستكشاف.

- وأنت ما عملك؟

- أنا طالبة فى امتياز القصر العينى.

طبيبة؟! جميل، جميل جداً.

- قرأت لك عدة مقالات من قبل ولكن للأسف كان كلها فى السياسة.

- أنا لا أكتب إلا فى السياسة.

- ولماذا لا تكتب فى الحب مثلا؟

- ضحك وقال فى هدوء.. أنا لا أكتب فى الحب لأننى عملى، أصل إلى الجذور فى لمح البصر ولست على استعداد أن أعيش هائماً

فى كل وادى كالشعراء والرومانسية.

- ولكنى أرى فى سيارتك شرائط كاسيت غنائية. تسمح لى أن أفحصها؟

- تفضلى.

- هذه شرائط لعبد الحليم وهذا هو الأطلال.

- وهذا شريط من شرائط أم كلثوم الوطنية الذى طرح قريباً بالأسواق.

- لولاكى هذا قديم جداً.

- ولكنه مهم وجميل

- وهذه مجموعة من الأغانى الجميلة

- شبابية

- يسمونها شبابية ولكنها الأعظم بكل المقاييس

- وهذه سورة يس من القرآن

-بصوت الطبلاوى؟

- نعم.. لماذا إذن لم تكتب عن الحب رغم كل هذه الأعمال العاطفية.

- أنا أسمع كل شىء، لاحظى أننى صحفى.

- وماذا أحضر الصحفى القاهرى إلى الدلتا؟

- انتخابات مجلس الشعب على الأبواب وهناك سبق صحفى

بخصوصها فى الدلتا

- هكذا؟

- نعم

كانت عاصفة من التفكير تدور فى رأسه وقد ثبت عينيه على الطريق، والوقت ليس فى صالحه فهو لابد أن ينجز ما هو فيه قبل حلول الظلام.

وقد حمسه أنه وكأنه قد تأكد من شىء ما وهكذا فيجب أن يحسم أمره وينجز عمله فى أسرع وقت ممكن خاصة أن المنصورة على الأبواب.

- أنا عطشان هل لك فى مشروب معى فى هذه المقهى.

- بسرعة وبلا تردد/ نعم

تواجها ولأول مرة تفحص وجهها بعمق فهتف فى أعماقه.. فاتنة وبالمثل تفحصته جيداً للمرة الثانية وأطلقت زفرة أنثوية حائرة أزادت بها لهيب الموقف ولكنها ابتسمت ابتسامة لها معنى وقد أدركت هى الأخرى شيئاً ما. جاء النادل فأشار عليها أن تطلب ما تريد فطلبت فى برود:

- بيرة ستلا مثلجة جداً

أشار إلى النادل بمثلها له ثم أردف لها

أنت فى كل لحظة تثبتين لى أنك عملية جداً.

أصبح من الواضح أن ثمة فكرة قد سيطرت عليهما وأن كل منهما يريد حثيثاً أن يلتقى بالآخر على ضفاف هذه الفكرة.

دارت بعينيها فى المكان فأسعدها أن لا أحد من رواد المقهى بجانبهما مما أعطاها حرية أكبر فى الحديث.

- الدنيا حر جداً.

لم تكتف بهذا القول بل مدت يدها على أزرار فستانها الأزرق المشقوق نصفين من الأمام والملتحم بتلك الأزرار الداكنة، مدت يدها على زرارين فانفرج فاه الفستان ليكشف ذلك الصدر الناصع وقد تدلى فى وحشية نهدان بارزان.. غرس بصره بهذا الشق الذى انفجر فجأة ليخرج له ما يتيه عقله، أبصر على الفور الصدر الناهد وغلافه الأحمر من الملابس الداخلية..

جن جنونه وتساءل فى لهفة بنفسه: من هذه المخلوقة الغريبة؟

أطلق زفرة حارة لفحت وجهها وهتف فى نفسه (هنخلص إن

شاء الله) ثم سألها بعد برهة:

هل لك أصدقاء؟

- بالطبع

- ذكور أم إناث؟

ضحكت ضحكة خبيثة.. معظمهم من الذكور

- هذا يثبت أنك فتاة عصرية

وهنا جاء النادل فوضع زجاجتا البيرة فى أدب وانصرف.. أفرغا نصف البيرة فى الكأسين اللذين احتويا مكعبات الثلج وبدآ فى الشرب

كان فى كل جملة يختار كلماته بعناية ليؤكد ما وصل إليه من مكسب ويكتشف ما هو مقدم إليه من غيب عنه فقال:

- أنا أيضاً لى صديقات كثيرات

- بالطبع فأنت شخصية عامة.

- ولكن هل لك صديق شخصى مقرب منك؟

- نعم هو فى الأصل زميل لى وتطورت العلاقة بيننا بعد دخولى الجامعة حتى صرنا صديقين.. هو أقرب الناس إليّ

- هل بينكما.. حب ؟

صمتت عدة لحظات كأنها أدركت السهم الذى ستصيب به الهدف فقالت بعد أن شربت الكأس: بيننا كل ما تتخيله

أدرك أنه يسير فى الاتجاه الصحيح فرفع الكأس إلى شفتيه ولم يزغ عينيه عنها.. كان يريد أن ينتهز الفرصة ليفكر ثوانى ولكنها لم تمهله فقد سألته.. معك سجائر؟

تمالك نفسه وقال: بالطبع/ أخرج من جيبه الداخلى علبة سجائر من جيبه الداخلى علبة سجائر أجنبية وقدمها إليها. أخرجت سيجارة وأشعلتها وشهقت منها شهيقاً عميقاً إندهش له فهو نفسه لا يستطيع شهق هذا الدخان الكثيف

مرت لحظات بسيطة وقد أدرك أن الخطوات الباقية قليلة.

- هل بينكما زواج عرفى مثلاً؟

- شهقت شهيق آخر ونفثته فى اتجاهه فغمره وقالت فى بساطة: ولماذا زواج عرفى؟ ولماذا زواج وشهود ووجع رأس.. لقد تحابينا وتضاجعنا وتعاهدنا على الزواج فى أقرب فرصة.

- أى أنك لست عذراء؟

ضحكت ضحكة رقيعة.. صبت ما تبقى من البيرة فى كأسها

وشربته كانت تتعمد أن تهمله كثيراً لتثيره

- بالطبع أنا لست عذراء.. أنا حرّة أفعل ما أشاء مع من أشاء في أى وقت أشاء ولن أسمح لأى قوة أن تحد من هذه الحرية حتى صديقى وزوجى القادم.

- أفهم من ذلك أنك تمارسين الحرية مع الجميع؟

- مع من أتوسم فيهم الذكاء

- وحبك ؟ وصديقك؟

- صديقى وزوجى القادم يفعل مثلما أفعل ولا ألومه لأننى لن أسمح له أن يلومنى ويوم أن نتزوج سنتفق على أسس نعيش عليها.

ولكن هذه الأسس لن أسمح لها أن تنال من شخصيتى مهما كانت الظروف ومهما كان الحب.

- معنى ذلك أن لك علاقات خاصة وصديقك يعلم بها؟

- يعلم أو لا يعلم هذا شأنه هو لا شأنى أنا.. هذه حياتى أنا.

- أنا أعشق هذه الحرية ولكن ألا تتوقعى أن تزوجك العائلة مثلاً ممن لا ترغبين به.

- عائلتى بالقرية تعيش بوهم كبير.

- بالقرية؟

- نعم أنا من احدى قرى الدقهلية. ورغم ذلك فقد تفوقت والتحقت بكلية الطب لقد وصلت إلى القمة ولن أهبط عنها أبدا بل أننى سأكون عضوة بهيئة التدريس.

- أنت متفوقة أذن؟

- طبعاً.

- ولكن التفوق ليس كل شيء

- ستعلم بعد قليل أننى سأكون عضواً بهيئة التدريس رغم أننى لست من بنات أعضاء هيئة التدريس أو ممن لهم نفوذ بالطبقة العليا من المجتمع.

- أنت عنيدة.

- دعنى أقول لك شيئاً بعيداً عن عنادى. عائلتى تعيش على أوهام كبيرة ماتت منذ سنوات طويلة ولكنى سأنفذ كل ما أريده ولن يستطيع اخوتى أو أبى أو أمى أن يرغمونى على شيء لا أريده. أنا لم أعد أنتمى إلى هذه القرية المتخلفة ولا لهذه العادات والتقاليد أو حتى العرف البائد لقد تغير العالم ولابد أن نتغير معه.

- أنا شديد الإعجاب بك

- أنت تريد أن تمهد لشيء أعرفه من أول وهله ولكنك تتعامل معى كما تتعامل مع القراء بالتورية والتمهيد والخطط.. أنت يجب أن تتعلم كيف تتعامل مع الأنثى.

أسقط فى يده تساءل ماذا تعنى هذه المرأة؟ هل ستعلمنى بعد كل هذه السنوات من الخبرة والاحتكاك بالسياسيين والمجتمع كيف أتعامل مع الأنثى؟!

لم تمهله فرصة التفكير فقالت وهى تفك ارتباط الزرار الثالث بموثقه ليتجلى صدرها اللاهث: أنت تريد مضاجعتى.

أراد أن يقول لها أنى أدرك من أول وهلة من خلال مشيتها ونظراتها أنها لعوب وأنها امرأة مهاد من الدرجة الأولى ولكنه أثر أن يخفى ذلك على أن يثبت لها رجولته فى المضمار فهو لا يعترف بالكلام...

أفرغ ما تبقى من بيرة فى كأسه وشربه فى جرعة واحدة وقال فى هدوء:

نعم أريد أن أنام معك.

أطلقت الصعداء وقالت فى هدوء وأنا أوافق.

- ولكن هناك مشكلة.. ليس لدى الوقت الكافى الآن أنا مرتبط بموعد هام.

- ستكون مغامرة لذيذة لن تأخذ منك وقتاً طويلاً

- ستكون علاقتنا دائماً

- هذا متوقف على أشياء كثيرة سأعرفها بعد قليل.

سقطت جملتها كالصاعقة فهتف فى نفسه: سأسحقك جنسيا يا عاهرة.

نظر فى ساعته لم يعد أمامنا وقت طويل.. هيا الآن.

إمتطيا السيارة وقد لفتهما الرغبة وسحِرها.. دارت الأفكار فى رأسه هل يأخذها إلى المدينة ومنها إلى فندق؟ ولكن الفكرة باءت بالفشل لأنه شخصية عامة ولن يستطيع أن يأخذها إلى الفندق دون فضيحة قد تصل إلى أسرته المكونة من زوجته وولده وابنته فيتهدد مستقبلة كله.. كما أن الرغبة قد احتوته الآن فدمرته وأحالته إلى قرار بأن يضاجعها ويثبت لهذه المتمردة رجولته تلك الرجولة التى أضحت فى موضوع الامتحان. إذن لم يبق إلا الطريق وعلى هذا الطريق أو فى جنبيه لابد أن يكون ما قد قراره.. كان

ذهنها هى الأخرى يعمل بسرعة ولمعت الفكرة فى رأسها فعاجلته

- أدخل إلى شوارع أول مقابر تقابلك

هتف فى أعماقه أيتها المجنونة كيف لم يتبادر إلى ذهنى هذا المكان الهادئ فى هذا الوقت من الرواح؟ بالفعل إن المقابر هى المكان التالى.. بعد خمسة دقائق كانت أطلال المقابر تتراءى على يمين الطريق وقد لفها هدوء رهيب..

- ها هو المكان.. ادخل إلى اليمين.

بالفعل دخل إلى اليمين كانت المقابر تمتد إلى عمق اليمين ثلاثمائة متر وعرضها خمسين متراً، فهى إذن ساتر مناسب ليحتوى العاشقين.

اوغلت السيارة حتى وصلت إلى قلب المقابر.

لقد اختفينا تماماً إلى إحدى الحارات الجانبية حتى تختفى تماماً عن الأنظار.

وبالفعل انزوت السيارة تماماً... أوقف المحرك وساد الهدوء... خرجا من السيارة ليفحصا الموقع.. كان موضعهما شديد الهدوء تصله من برهة لأخرى آثار مروق السيارات فى الطريق الزراعى، ولكن الهدوء ما يلبث أن يعود... دارت ببصرها فى المكان كانت ثمة

عيون مفتوحة خالية من الرفات بجانبها عيون مغلقة بالأسمنت وقد كتبت عليها أسماء وتواريخ الدفن. دارت بعينيها فى المكان وابتسمت هتفت: محظوظان.

هرولت فتابعها وقف أمام أطلال مسجد ولكن جدرانه الأربعة متعانقة بينما السقف متهدم وفى المقدمة باب خشبى كبير موارب هتفت فى فرحة: هنا.

قرأ فى صوت مسموع: هنا مسجد الشهيد صبرى حامد أحد شهداء الحرب ثم قرأ جملة أخرى.. تبرعوا لإعادة بناء المسجد، بعد بحث يسير وجدا صندوق خشبى مثبت بسلسلة حديدية فى إحدى القضبان الحديدية للجدار.. ولجا إلى الداخل.. كان ضياء الشمس قد بدأ فى الذبول ولكنها شاهدا فى وضوح الجدران وقد ازدانت بنقوش شوهاء وكلمات هى على الأرجح أسماء الله الحسنى ولكن طبقة الزيت الهالكة قد حرّفت الكلمات ولكنهما استطاعا قراءة بعض الأسماء وفى السقف كانت بعض الآيات تبينوا منها بعض الكلمات (نور) (على) (نور) (شرقية) (غربية) (يكاد) (زيتا) (ولولم) (نار) (الله) (مَنْ) (يشاء).

قالت وقد أخذ اللهاث يطارد كلماتها

- أعتقد أن ثمة حارساً للمكان فهم لن يتركوا الصندوق للصوص

- نعم.. هذا منطقى.

وهذه الصناديق التى فى الجانب لابد أنه ينام عليها.

- إنها صناديق كبيرة مغطاه بالحصير.

- أذن هيا وقبل أن يأتي

- هيا

عبثت فى الوشاح الأبيض الذى يغطى رأسها فانزاح فى سهولة فظهر شعرها الطويل الذى أكسبها فتنة على فتنتها.

ثم امتدت يداها إلى بقية الازرار تفكها واحداً تلو الآخر ليظهر إلى الوجود جسداً ناصعاً قد ضربته حُمرة الإثارة فالتهب وألهب الصحفى فهتف فى شوق.. أنت خطيرة.

فعالجته بضحكة رقيعة وارتمت فى أحضانه تجره إلى الصناديق المتراصة وقد علاها الحصير. التقت الشفاه فى عنف والأيادى تعبث فى جسد كل منهما حتى إذا ما أراد أن يطورا العناق والقبلة انفتح فجأة وظهر رجل يقف فى تحدى وقد نظر إليهما شزراً. أخذتهما

المفاجأة القاسية ولكن بعد لحظات أدركت الحقيقة أنه الرجل الذى رفضت أن تركب معه السيارة المرسيدس الحمراء.. نعم هو.. هو.

مرت لحظات لطيفة أعدل فيها من سرواله حتى أحكم حزامه على خصره.

هتف الرجل.. كنت أعلم أنكما تدبران لهذا العمل الخبيث أيهما الشقيان.

فرد هانى.. أى عمل ؟ ماذا تقصد؟

نظر الرجل إليهما نظرة ذات معنى ثم ضحك ضحكة خبيثة وقال:

- إييه عليّ أنا هذا الكلام؟ يا عزيزى ألا ترى هذا المشيب وقد اشتعل فى رأسى احترم خبرتى على الأقل.

- ماذا تريد؟

- أنا قاضى أى أمثل العدالة الإنسانية وأنا هنا أمثل أمامكما كمظلوم.

ولأول مرة تحدثت دون أن تدارى جسدها.

- ماذا تريد.؟

فعاجلها على الفور.. أريدك، أنت حقى أنا الذى اكتشفتك على الطريق أولاً ولكنك إمتنعتى ولا أعلم لماذا ولكن نظرتى التى

لا تخيب كانت فى محلها وإرادتى الطيبة قررت أن تراقبك لتثبت وجهة نظرى.

فعاجله هانى هذه المرة.. ماذا تريد؟

فرد القاضى فى هدوء.. أريد الحبوبة.

هانى.. الحبوبة؟ وأنا؟

القاضي: أنا أولاً ولعدة أسباب فأنا الأكبر فى السن ويجب احترام السن وأنا الأكثر خبرة فى كل نواحى الحياة.

وأنا أول من تعرض للحبوبة على الطريق ثم إننى القاضى وهكذا فأنا احق بالمضاجعة أولاً وقبلك بالتحديد يا عزيزى.

لم تتحمل كل هذا فضحكت ضحكة رقيعة.. لقد ملأتها هذه الكلمات نشوة فتراجعت إلى الوراء لتجلس على الصناديق الحصيرية فقد قررت أن تكون لمن يكون أولهما دون تحيز منها واستطرد القاضى.. وإذا ما اعترضت يا عزيزى فأنا متأسف أن أقول لك أننى سأمنع هذه المضاجعة من أصلها وبهذا لا أنت ولا أنا نفوز بمصاحبة هذه الفاتنة.

سألها هانى ما رأيك؟

لم ترد وإنما نظرت له نظرة عجيبة معناها (تصرف) فأردف هانى للقاضى... ولكن ليس لدى وقت.

فرد القاضى متلهفاً أنت الذى تضييع الوقت الشمس ستذهب بضيائها ما عليك سوى الانتظار بالخارج كما انتظرت أنا وقد استضفتها فى المقهى هكذا نتبادل الانتظار ولا تخشى شيئاً فعلى سيارتك كيس به زجاجتين من البيرة اشربهما وتسلى كما شربت زجاجتين على المقهى المجاور لكما أراقبكما. أليس هذا هو العدل يا عزيزى؟

كانت تعتصر هانى رغبة فى هذه الشابة التى عصفت بكيانه ولكن الأمر لم يكن هذا فقط كان يريدها خليلة له إلى فترة طويلة قادمة فهى فاتنة ولكى يحصل على ذلك لابد أن ينجح فى الامتحان الذى وضعته فيه.

حسن سأترككما ربع ساعة.

فهتف القاضى فى غيظ.. لا، اترك الغيث يهمى كما يشاء لا تجعل الوقت يقتل المتعة.

إن هذه الربع ساعة لا تكفى لشىء بالمرة.

- ماذا تريد إذن؟

- أتركنا إلى أن أخرج لك.

سلك هانى طريقه إلى الخارج ولكن قبل أن يخرج أوقفه القاضى بأن وضع يمناه على منكبه وقال:

- لا تحزن أنا برضه الكبير.. فابتسم هانى رغماً عنه وقال:

- أنا روحى رياضية وخرج

أغلق القاضى الباب بقدمه فى حركة رشيقة وتقدم إليها فى خطوات واثقة بسيطة وقد التهمها بعينيه.

هتفت ضوء الشمس لن يسمح لنا بوقت طويل.. هيا..

خلعت ثوبها ثم ردائها الداخلى أما هو فقد استأذنها لحظة بأن يبول فى الركن المقابل ذهب وهو يمزح: أنها البيرة

مضت ساعة كاملة وهانى يحترق بين تلك الأغانى الصاخبة التى تنبعث من مسجل السيارة والبيرة التى قضى على زجاجتيها كان الغيظ يتملكه والرغبة تحرقه والخيال يسحقه والموعد المنتظر يداهم هدوءه فيحيله إلى بركان من القلق الذى شله تماماً ولكنه لم يكن يقدر أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يقترب من الباب فيسمع

ما يشيب من هو له الولدان فيرجع إلى السيارة فيحكم غلق الباب والزجاج فلا تتسرب إليه تلك التنهدات المدمرة.

بعد هذه بساعة كان القاضى يحكم سرواله حول خصره ويضع اللمسات الأخيرة على رباط الصنف الزاهى ومنديله الزاهى فى جيب الحلة الداكنة العلوى.

تنفس الصعداء وقال فى هدوء:

- لم أتصور أنك عفريته بهذا الشكل؟!

فردت عليه بنفس المنطق.. وأنا لم أتصور أن تكون بمثل هذه الفحولة.

الدهن فى العتاقى يا بنتى وأردف لهذا لم ترضِ الركوب معى أول الأمر.؟

- نعم.. وقد كنت مخطئة فى ذلك ولكن هذه الساعة الجميلة اعادت كتابة تاريخى.

- أنا أريد أن أكافئك دس يده فى جيبه فأخرج ورقة مالية من أوراق معه أعطاها ورقة خضراء وقال:

هذه ورقة من فئة المائة دولار.

- ولكنى لست فى حاجة إلى المال أنا ضاجعتك لأننى حرة.

- وأنا لا أقدم لك ثمن الساعة الجميلة التى قضيتها معك إنها تذكار على أهم ورقة بالعالم اليوم فخذيها منى عن طيب خاطر وليس هذا فقط (خذى هذه أيضاً).

- ما هذا؟

- أنها سلسلة ذهبية بها آية الكرسى لتحفظك.. وهذا هو كارت وبه رقم المحمول.

أخذت الكارت وقرأت على بصيص النور منصبه ونظرت إليه وهى لا تزال عارية.

- أنت عظيم...

- خليها فى سرك الآن أقول لك إلى لقاء جديد فى القاهرة وعندما نلتقى سنكون فى مأمن وستكون لنا شقة رائعة نتقابل فيها وأنت تستحقين ذلك فمنذ فترة طويلة لم أجد هذا الإجرام فى امرأة.

ضحكت ضحكتها الرقيعة وأنت أيضاً مجرم كبير جداً.

قبل شفتيها فى عنف وقال مع السلامة.

كان هانى على وشك الانفجار فقابله القاضى بوجه مبتسم.

آسف يا عزيزى.. تأخرت عليك قليلاً ولكن لا بأس لا تزال

الشمس ساطعة.. الوداع.

ولج السيارة وضغط على ضاغط البنزين بقوة فانطلقت السيارة محدثة ضجيجاً وصراخاً ومخلفة هالة من الغبار.

دخل هانى وأغلق خلفه الباب وجدها وقد استكانت منتشيه على الصناديق الحصيرية كان يود أن يسألها عما فعله معها ولكن كرامته منعته من ذلك. بعد تفكير قليل قرر أن يطفئ رغبته فى شراسة وهذا كل شىء. اتجه إلى الركن المقابل لها وبال فيه قائلاً: انها البيرة.

بعد نصف ساعة انتهيا من المضاجعة كان من الواضح أن نشوتها مع القاضى أقوى مما هى عليه مع هانى وقد أدرك ذلك.

فالتهبت كرامته ولكنه تحامل ونظر إليها وسألها:

- تعبت؟

- فعاجلته فى هدوء: أبداً.

هل سأراك مرة أخرى؟

- بالتأكيد

مد يده إليها وهو يعدل هندامه.. هذا هو كارتى وبه رقم

المحمول منتظرة منك مكالمة.

- طبعاً.

- هيا ارتدى ملابسك حتى أوصلك إلى قريتك.

فى خمس دقائق كانت قد احكمت هندامها ووضعت لمساتها الأخيرة على وشاحها الأبيض مد يداه إلى زرار ردائها الأزرق الأخير ليثبته فى محجره وهو يقول..كنت أتمنى أن نمكث هكذا إلى الأبد ولكن فى كثير من الأحيان الأقدار لا تتيح لنا حيزاً من الحرية.

- لا عليك كانت لحظات جميلة على أية حال

خرجا من أطلال المسجد وسارا بخطوات هادئة إلى السيارة.. ولجا.. لاحظت أن شيئاً ما فى الطريق يتحرك، كان مشغولاً فى إدارة السيارات وشيئاً فشيئاً أدركت ما رأته فكتمت ضحكتها لقد رأت كلباً يضاجع كلبة. سألها عن ضحكها فقالت فى أنوثة: لا شىء.

انطلق بالسيارة بينما ظلت تراقب الكلبين حتى غابا بالظلام وعندما أصبحت السيارة على مشارف الطريق رأيا رجلاً يمسك بمصباح أبيض نيون ينير له الطريق فأدركا أنه الحارس الذى تعجب عندما شاهد السيارة تخرج من قلب المقابر.

- يجب أن أسرع فقد فات الموعد وربما الحدث كله. كانت السيارة تنهب الطريق نهباً أما هى فقط أطلقت نظرها إلى الأفق لا تفكر فى شىء فقد ارتويت ولكن الهدوء لم يدم فقد ارتفعت أعمدة الدخان من مقدمة السيارة. أوقف هانى السيارة بسرعة وهتف.. السيارة تحترق.

خرجت وقد أمسكت بحقيبتها تنظر إلى الدخان المتصاعد فى عنف. أسرع هانى وفتح مقدمة السيارة

فقال إنه ماس، السيارة ستحترق بالكامل.

- حاول أن يخمد النار الناشبة ولكنه فشل كان من الواضح أن الماس يسرى إلى أن يصل إلى الأسلاك فى كل الاتجاهات فوق خزان الوقود أمرها بالتراجع بعيداً عن السيارة وقد بدا أن يده قد احترقت من أثر البلاستيك المنصهر وما هى إلا دقيقة وقد انفجرت السيارة. بدأ الأهالى يتجمعون ومعها تقف السيارات وقد خرج السائقون بطفايات الحريق يرددون لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله الله أكبر.. معلهش يا ابنى.. اعتذرت له عن الاستمرار فى وجودها معه فالقرية قريبة من هنا وقد يتعرف عليها أحد.

تفهم وجهة نظرها وودعها وقد ذكّرها بالموعد القادم فطمأنته على ذلك بالطبع تركت الأهالى يهيلون التراب على هيكل السيارة وصالونها وقد بدأت النار تخبو. على ضوء الغروب ونار السيارة قرأت البيانات فى الكارتين. مزقت الكارتين وابتسمت فى ثقة وقد أصبحت قريتها على مرمى البصر.. رددت فى بساطة (مسكينان.. لقد كانت مجرد مغامرة.. وما أكثر المغامرات).

(٤)

ب - لا

استيقظت مبكراً هذا الصباح... كأنها تعودت على الاستيقاظ فى هذه الساعة طوال العام الدراسى المنصرم قالت فى نفسها (أنها الساعة البيولوجية).

أطلت بنظرها إلى الشجرة الباسقة التى غازلت نافذتها بفروعها.. كم كانت تحب هذه الشجرة وكم تعلمت منها الحب والحنان.. داعبت فروعها بأناملها الرقيقة كأنها تقول (صباح الخير) دخل أبوها حجرتها المنظمة مبتسماً (صباح الخير أيتها المعيدة الحسناء).

سارعت لتقبله ترد إليه تحيته.

- استيقظت من نومك فى نفس الموعد.

- تعود.

- أننا الآن فى الصيف عليك أن تستريحى لأن القادم أصعب من الماضى.. أنت الآن معيدة فى كلية الحقوق بعد التفوق الكاسح

طوال أربعة أعوام.. عليك أن تستعدى لمزيد من الكفاح فى مستقبلك العلمى.

-عقلية رجل الأعمال المنظمة هى التى تتكلم.

- بل عقلية الأب... أنت من اليوم ضيفة فى النادى حتى الاستجمام.

- أنا فعلاً مرهقة جداً... عقلى كله أفكار وبنود وقوانين ومواد وقلبى يأكله القلق يتساءل هل سأنجح فيما هو قادم أم لا.

- الذى أنجحك فى الماضى هو الذى سينجحك فى المستقبل.. إنه الكفاح.

بعد تناول الفطور ارتدت رداءها البسيط الناصع البياض.. استقلت سيارتها الجولف وخرجت إلى النادى تعبر طريقها وسط شوارع المعادى الهادئة كان لنجاحها الكبير الصدى الواسع فى نفوس رواد النادى ولكن الجميع اتفقوا على أن هذا سيضيف إلى غرورها غروراً... فهى دائماً هادئة لا تتحدث مع أحد.. ملابسها بسيطة غالية الثمن.. تحكم نظارتها الشمسية البنية والتى لا تغيرها.. على عينيها الخضراوين وتحكم جماح شعرها الأسود الناعم ليتدلى على هيئة ذيل الحصان.. تجلس فى أماكن محددة فى النادى بعد

أن تبتسم فى هدوء وثقة لمن حولها.. تطلب مشروباً محدداً هو الليمون أولاً والشاى السادة ثانياً وفقط...

تمكث عدة ساعات تقرأ فى صحيفة أو مجلة أو أحد الكتب.. لا تتحدث مع أحد وإن تحدثت كان الاقتضاب.. ترحل فى هدوء كما جاءت فى هدوء..

وشخصية كهذه لابد أن تثار حولها الإشاعات ولابد أن يكون جوهرها كله الغرور والتعالى ولكن الحقيقة كانت عكس كل ذلك فهى تحب العزلة دون تكبر وتحب القراءة وتجد فيها وسيلة مفيدة لاستثمار الوقت وتعشق الهدوء ولهذا فهى تبتعد عن الجميع لأنها تعلم أن كل من حولها لا يجيدون سوى الكلام وفقط... كانت تضع حاجزاً بينها وبين اللغط لأنها أولاً لا تجد الوقت الذى تمارس فيه هذا اللغط لدراستها وتحديد هدفها بالتفوق وثانياً هى لا تجيد الكلام ولا المجاملات ولا المداعبات لهذا فهى تبتعد عن مجتمع لا تستطيع أن تجاريه.

ثم هى قبل كل ذلك وبعده تعلمت من أبيها وأمها روح الالتزام والاحترام خاصة الأب الذى زرع فيها القدرة على اتخاذ

القرار والقدرة على وضع رؤية لها فى حياتها ومستقبلها وتحديد هدف تعيش من أجله وهذا كله

أتى بثماره فقد حققت النجاح الكبير، ووضعت قدميها على أول خطوات المستقبل ولكن الشىء الذى كانت تعانى منه دون أن تدرى أنها تحولت إلى كتاب قانون بحكم العشرة.. تحولت حياتها إلى بنود ونظام دقيق من استيقاظ إلى محاضرات إلى مذاكرة إلى نوم.. كانت تشعر أن ثمة شيئاً ينقصها هى نفسها لا تعلمه ولكنها تشعر به لهذا كان حنينها إلى هذه الشجرة التى تغازلها بفروعها.. ربما أدركت فى إحدى مرات تفكيرها أنها فى حاجة إلى حنان أمها وأكثر ولكنها عاودت التفكير لتكتشف أن أمها تغمرها بحنانها.. ولما اكتسحتها الأفكار قررت ألا تفكر فى ذلك الشىء الذى ينقصها لأنها ستدركه حقيقة واقعة عما قريب...

كل ذلك سقط ناراً على قلوب كل من حولها فى النادى... الرجال أعجبوا بها ربما لأن مسلكها يشابه مسلكهم.. والنساء فى العقد الرابع من العمر كن ينخسن منها جداً ويتفننن فى رسم عيوب جسدها وملامحها ويلقبونها بالفتاة المسترجلة والفتيات فى سنها

أكلت الغيرة قلوبهن تماماً خاصة بعد تفوقها الدراسى ولإعتزالهن وكن يرددن دائماً أن هذا الأدب الجم إنما تخفى به قذارتها؟

ها هى تمرق اليوم بين الجميع توزع ابتسامتها الواثقة على الجميع وتجلس فى مقعدها، ولكنها اليوم دون كتب أو صحيفة، هى اليوم تريد أن تريح ذهنها. دار الحوار بين جماعة من جماعات النادى.

- ها هى أتت.

- لم تقل حتى صباح الخير... تزدرينا ؟؟

- نحن أبناء أعلى طبقة بالمجتمع تزدرينا هذه الحمقاء.. أبى يستطيع بسهولة أن يطيح بأبيها المعتوه مثلها.

كان يتوسط الجلسة صامتاً وقد حدق بها.

- رمزى.. رمزى.. لماذا تحدق بها هكذا.. ستلاحظك

ورد رمزى.. أنها ليست لغزاً إنها فقط لا تجد فى كل من حولها من يحظى بإهتمامها.

- ألم أقل مغرورة؟

- لا يا رمزى أراهنك أنها منحطة فى ثوب معتزلة بتول.

- ترى يا بنات هل لها رغبة جنسية مثلكن؟

ودارت الضحكات الرقيعة وردت احداهن.

- أنت أدرى منا.

وازدادت الضحكات.

ورد رمزى – هذا النوع شديد الرغبة.

لا تضييعوا الوقت مع البتول نحن أمام حفلة عيد الميلاد الليلة.. كل عام وأنت طيبة يا سوزى.

انطلقت التحيات على سوزى من كل إتجاه.

فردت سوزى.. أريد هدايا ثمينة.

- سمينة جداً يا سوزى.. وتدور الضحكات.

ولكن رمزى كان قد تعلق بها فأدرك الجميع ذلك

- هل أصبحت متيماً؟

- لا.. ولكن هناك شىء ما فيها يجذبنى.

فردت سوزى فى سرعة إنها الرغبة يا رمزى هذا كل شىء فالممنوع مرغوب.

- ربما.. دعونا من هذا الأمر الآن.. ما ترتيب الليلة.؟

- سنجتمع الليلة الساعة التاسعة مساءً

- لنسمع الأخبار.
- وتدور الضحكات
- ونطفئ الشموع
- كم شمعة سنطفئ يا سوزى؟
- شمعة واحدة فقط.
- ونقدم الهدايا

رد رمزى.. شقتى ترحب بكم الليلة

- شقتك؟! إنها شقة الجماعة كلها أنت مجرد صاحبها فقط

رمزي: وستكون تكاليف الحفلة من جيبى الخاص.

- لا يا رمزى.. نصيبك هو التورتة وخلافه وطبعاً الشمعة
- وأنا الويسكى.
- وأنا السجائر والبانجو.
- وأنا شريط الفيديو الجنسى... فيلم فرنسى رائع.
- يا رياح الثورة الفرنسية هبى.
- لا يا عزيزى يا رياح الثورة الثقافية الصينية هبى.

وتعالت ولكن عينا رمزى لم تسقط عن مها كان هذا اسمها.

فى المساء..

أطفأوا الشمعة المضيئة نفخة واحدة.. تبادلوا القبلات مع سوزى انطلقوا إلى البار ليغترقوا بكؤوس من الخمر.. بعد دقائق كونوا دائرة حول الفيديو وقد أشعلوا السجائر البانجوية فى يسراهم السيجارة وفى يمناهم كؤوس الويسكى.. أدار رمزى الفيديو وتتالت مشاهد الفيلم الفرنسى.. كانت سوزى التى جمّعت هداياها بجانبها قد أوغلت يمناها بصدر رمزى ولكنها وجدته مشغولاً عنها.

- هل يعجبك الفيلم لهذا الحد.. أنه مكرر.. ضعيف؟

- لا.

- ماذا أذن يشغلك؟

- مها.

-إلى هذا الحد اشتهيتها؟!

- إلى أبعد مما تتصورين

- ولماذا لا تحاول معها.. أنت أوسم شاب فى النادى كله

- سترفض

- لا أعتقد.. أنها قذرة صدقني

- على أية حال لقد قررت أن أصطادها.

ساعتها أطلقت ضحكة كأنها انتصرت قامت وقد طوحتها الخمر والسيجارة.. أغلقت الفيديو فاستاء الجميع ولكنها سارعتهم.

- إليكم هذا الخبر الهام يا جماعة الحب الأزلى.

- ما هو؟

- رمزى قرر أن يصطاد البتول المعتزلة.

- ها هو الرأى... لابد من كسر أنفها

- لابد من فضحها

- لابد من مضاجعتها.. سنجعلها مشاعاً.

- ومتى التنفيذ؟

- من الغد.

- وما تقديرك فى الوقت؟

- شهر

- والمكان؟

- هنا.. سأستدرجها وأضاجعها وتداهمونها عارية.

- المعيدة القانونية الحسناء... عارية.. حلم جميل.

- أعيدى تشغيل الفيديو.. أعادت سوزى تشغيل الفيديو ولكنها كأنها تريد شيئاً ما.. صاحبت رمزى إلى حجرة النوم وسألته بعد أن أفرغت الكاس فى جوفها؟

- رمزى.. الفرق بين الحب والرغبة شعرة.

- لا تقلقى يا سوزى أنت تعلمين أنك حبى الوحيد.

- ارتمت فى أحضانه وقد أخذت تفك أزرار قميصه البرتقالى.

- رمزى.. هيا.. هذه ليلة عيد ميلادى.. أريد متعة لم أتمتعها معك من قبل.

أطفأ السيجارتين البانجوتين وكان اللقاء الوحشيّ.

فى الصباح كان رمزى يتقدم المناضد ليصل إلى مها الجالسة فى هدوئها المعتاد.. كانت تنظر إلى الأفق ترشف الرشفات الأخيرة من شايها.

-صباح الخير يا آنسة مها.

- أسقط فى يديها.. من هذا الذى يعرفنى بل يناديني بإسمى؟ لم يكن لها علاقة بأى شاب إلا فى حدود زمالة الجامعة البريئة.. ارتبكت أول الأمر.. وضعت فنجان الشاى بهدوء فى طبقه وردت

فى هدوء

- صباح الخير

انتهز فرصة انتظارها تلك الثوانى لترد وقد أخذ يحدق فى ملامحها.. أثارته تلك الملامح الأنثوية.. العينان الخضراوان.. الرموش الطويلة.. الحواجب المرسومة الثقيلة.. الكحل الأزرق.. الوجنتان المتودرتان.. الشفتان الرقيقتان أحمر الشفاة البسيط الوردى المثير.. الجيد الرقيقة التى تجعل وجهها رقيقاً.. الشعر الأسود المحكوم بحزم فى ذيل الحصان..

الحليّ الرقيقة اللؤلؤية البسيطة الغالية.. الأنامل الطويلة دون نحافة ودون امتلاء وطلاء الأظافر الأحمر وقد ازداها بهاءً وبهاءً.

ورغم أن الثوانى لم تمهله إلا أنه تخيل الجسد بكل دقائقه ساعده على ذلك الرداء الشفاف وخبرته النسائية العالية...

لم يرد عليها فى بادية الأمر فقد آثر أن ينتظر لثوان أخرى حتى يحدد عدة أشياء مدى قابليتها له كيفية الانتقال إلى الخطوة الثانية فى هدوء.. ثم جاء صوته الرخيم.

تسمحى لى بالجلوس؟

ردت بهزة هادئة من رأسها دون تكلم.. جلس.. ابتسم ابتسامة صافية ولكنها فى داخله كانت ابتسامة الصياد الذى أدرك الطريق إلى الفريسة.. كان قد قرأ فى سرعة وجهها وأمعن النظرات فى عينيها الرائعتين.. أدرك أنها طيبة جداً وخام جداً ويسهل خداعها رغم تفوقها الدراسى وقرر بسرعة البرق وضع الخطة التى كانت تتلخص فى كلمة واحدة (الرومانسية) كررها فى نفسه نعم إنها (الرومانسية) هذه الفتاة رومانسية رقيقة.. تبحث عن الحب.

فشرع فوراً نسج خيوط الشبكة.

- آنسة مها قد تتعجبين من جرأتى ولكن عندما تعلمين الحقيقة ستدركين أننى كان لابد أن أخطو هذه الخطوة فى هذا الوقت خاصة.

كانت تود أن تسأله عن أشياء كثيرة أهمها كيف عرفت اسمى ولكنها آثرت الصمت...

رغما عنها كانت تحدق فيه.. حاولت أن تزيغ بصرها عنه ولكنها وجدت نفسها منقادة إلى عينيه.. كانت تحاول استكشافه.. عيناه السوداوان شعره الناعم.. بشرته البيضاء.. ملامحه المتناسقة

الجميلة.. أدركت أن بهذا الشاب سحر ما لم تتعود عليه ولكنها أرجأت كل ذلك إلى حين وأكمل؟؟؟

- أحب أولاً أن أعرفك بنفسى أنا رمزى.. صيدلى.. تخرجت من خمس سنوات ولدى صيدلية بمصر الجديدة.

كان سحره قد بدأ يتسرب إليها.. شىء ما بداخلها كان يوحى لها بالانجذاب لهذا الشاب.. لا شىء تعرفه ولا تعرف من أين جاء.. أخذ قلبها يخفق بشدة حتى أنها أصبحت تحاول إخفاء تهدج أنفاسها.. لم ترد عليه.. فأكمل

- أنت انهيت العام المنصرم دراستك الحقوقية وكان ترتيبك الثالث على الدفعة بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف... وهكذا أصبحت مؤهلة لأن تكونى معيدة بالكلية.

ولأول مرة ظهر أول رد فعل على ملامحها.. كان التعجب كيف عرف هذا؟

ولكنه قابل التعجب بابتسامة ثقة شديدة وأكمل.

كنت أريد منذ خمس سنوات الجلوس معك هذه الجلسة ولكن التردد كان حليفى.. نعم.. إنه التردد.. لأن هذه الجلسة

يتوقف عليها الكثير من تفاصيل حياتى.. نعم.. تفاصيل حياتى..

وأنت عندما تكونين بصدد موقف مصيرى لابد أن تترددى فيه لأنك تخافين الإخفاق.. أليس كذلك؟

لم ترد بل أومأت برأسها علامة الموافقة.. صمت، مرت الثوانى بطيئة كأنه يستجمع قواه ليقذف السهم.. كان يوجه عينيه إلى عينيها فى شدة وحنان معاً ولكنها لم تقو على النظر إليهما كانت تهرب بعينيها بعيداً ولكنها كانت آذاناً صاغية.. شجعه دوران عينيها بعيداً عنها فى أن يتمادى فقد أدرك أن ذلك الهروب الأخضر لتأثيره عليها

قال فى هدوء..

مها.. آنسة مها.. أنا لا أحبك فقط.. أنا أعشقك.. أعشق كل ما بك.. ملامحك الرقيقة.. عينيك الخضراوين الرائعتين... أخلاقك الراقية.. شخصيتك الناضجة.. إرادتك القوية.. حتى أزيائك البسيطة الجميلة... حتى حُليك اللؤلؤية الجذابة.

ما أنت إلا لؤلؤة ناصعة فى محارة تحت أعماق البحار وقد كان لزاماً عليّ أن أنتظر خمس سنوات كاملة حتى تنضج اللؤلؤة.

سقطت كلماته عليها كالصاعقة.. أحرقتها كلماته ومعانيها.. اكتسحها الاضطراب لم تكن تدرى ماذا تفعل وماذا تقول

حب؟ خمس سنوات ؟ عشق ؟ ملامح.. عينان.. شخصية.. أخلاق.. حُلى؟؟ ما كل هذا.. لقد سقط حجر كبير فى نهرها فأحدث موجة رهيبة أودت بالسكون الذى اشتهر به النهر فتحول إلى خضم مضطرب لا تعرف ما الذى أتى بالشجرة فى خيالها بهذه اللحظة.. كل ما كانت تعرفه أن ثمة سلطة لهذا الرمزى عليها وأن هذه السلطة تغتالها حثيثاً تحيلها إلى جارية له ورغم أنها فى هذه الدرجة العالية من العلم. بل أدركت أن ثمة شيئاً ما يرويها كأنها شربت نهر النيل.. شعرت أن ذلك النبع الذى سقاها الجفاء ينزوى ويحل محله ينبوعاً من ماء يروى أعماقها.. نعم شعرت لأول مرة أن أعماقها ترتوى بالحنان والحب.. وقعت هذه الكلمة عليها موقع الصدمة.. الحب؟! كيف تحب هكذا فى لمح البصر ؟ لا ليس هذا الحب هكذا حدثت نفسها ولكنها فى نفس الوقت فشلت فى تفسير معنى هذه النشوة التى أخذت تدغدغها وهذا الحنان الذى يسرى فى ثناياها.

لم تتكلم واهتبل رمزى هذا الاضطراب الذى اكتسحها فلاحظه من عينيها.

- مها أنا لا أريد منك شيئاً.. فقد راقبتك فى صبر سنوات وترددت بمصارحتك سنوات.. أنا لا أريد أن أفشل معك.. لأن الفشل يعنى فى بساطة نهايتى.. لقد استوليت على قلبى وحياتى.. كل ما أطلبه منك أن تفكرى فى هذا الحب وفى مسقبلنا معاً.. أننى أعرض عليك الحب والزواج ولكننا ونحن فى بداية القرن الحادى والعشرين لا أطلب منك إلا أن تكونى موضوعية فى قراراك وألا ترفضى وألا تقبلى هذا الحب إلا بعد أن تعرفى ما تقرريه أنت عنى.. عن حياتى العلمية والعملية والعاطفية.. هل هذا كثير؟

بدأ الذهول يتضح تدريجياً فى عينيها فلم ترد فأكمل:

- هذا رقم تليفونى (وضع أمامها ورقة بل كل معلوماته)

فى لحظة تبدل الذهول إلى غضب كأنها تقول كيف تجرؤ وتطلب منى أن أحدثك تليفونياً؟

أدرك خطأه المتسرع فحلاقها.

- أنا لا أريد أن تطلبينى ولكنه إجراء احتياطى فإن إحتجت

إلى صديق سأكون سعيداً أن أكون أنا هذا الصديق.. أما أنا فأنا أعرف بالطبع رقم تليفونك وسأطلبك فى وقت قريب.

ولم ترد.. لم تكن تعلم ماذا تقول له.. هل تقول لا تطلبنى كأنها ترفض هذا الحب الذى على ما يبدو أنها فى حاجة إليه أم تقول له نعم.؟ إنها تخجل أن تقول له نعم.. لأنها بذلك تكون قد قبلت الحب وهى لا تعرف عن صاحبه شيئاً!؟

وأكمل...

- أنا لا أريد منك شيئاً الآن ولكن اسمحى لى أن أشاهدك من بعيد فى النادى.. سأجلس على مقربة منك دون حديث فأنت تحضرين فى تمام الحادية عشرة من الصباح يومياً عدا الخميس والجمعة.. لا تحرمينى من رؤيتك بعد أن صارحتك بحبى.

أستأذنك..

قام وقد شعر بحاسة الصيد أن الشبكة قد نسجت وأن الصيد سيقع ما لم يكن وقد وقع بالفعل.

أما هى فقد تنفست الصعداء بمجرد انصرافه فهى لم تكن قادرة حتى على النطق.. اكتسحها الاضطراب والتخبط فلم تعد

قادرة على الحسم وهى التى تعودت منذ صغرها على الحسم. كانت ترفض كل ذلك ولكنها تعود تقبله ولم لا تقبله والزواج والحب أمر طبيعى خاصة أن تقديمه المهذب لحبه وحاجته قد نال منها الرضا.؟ كان الاضطراب.. نعم.. يكتسحها ولكن الشىء الغريب الذى لم تستطع مقاومته هو ذاك الشعور الغريب بالحنان الذى استولى عليها.. كانت تشعر أن ثمة نيلاً قد تفجر فى أعماقها فلم تعد تشعر بعد - كالماضى - بأنها جافة أو أن حياتها كشجرة فى قلب الصحراء.. عندما تأكدت أنه انصرف مدت يدها وأخذت الكارت قرأت اسمه وأرقام تليفوناته.. دسته فى حقيبتها الرقيقة.. وقامت كأن العالم كله يراقبها..

ساعتها ضحكت سوزى التى كانت تجلس بالقرب منها فاطمأنت بعد أن أخذت الكارت أن الأمور تسير على ما هو مطلوب.

لم تعرف كيف قادت سيارتها إلى الفيلا بالمعادى.. كسرت كل الإشارات كادت تصطدم بعدة عربات حاصرتها الكلاكسات من كل مكان ولكنها فى النهاية وصلت.. لم تحدث أحد.. صعدت مباشرة إلى حجرتها أسندت ظهرها إلى الباب المغلق تطلعت إلى فروع الشجرة

اليافعة ابتسمت.. ارتمت على المهد العذرى بعد أن أطلقت زفرة حارة...

أخرجت الكارت.. قربته إلى أنفها الدقيق.. اكتشفت أنه معطر بعطر رائع أدركت أن الكارت رسالة رقيقة لا مجرد كارت.. أعادت قراءة البيانات عدة مرات ومنذ تلك اللحظة كانت تتطلع إلى المسرة ورنينها فقد كان هذا الرنين يحمل لها المزيد من الارتواء والمزيد من الطمأنينة ليسكن هذا القلق القلق الصدرى الذى بدأ يموج بعواصف المشاعر.

أما هو فقد قرر وحسب الخطة المقررة أن يمهلها ثلاث أيام حتى يعاود الظهور لها مرة أخرى.. كان هذا ليثيرها أكثر فتقع فى حبائله أكثر.. لاحظ أبوها القلق الذى بدأ يرتسم على وجهها ولكنها طمأنتها عندما سألها ولاحظت أمها أنها قد تعلقت بالمسرة فسألتها هل تنتظرين محادثة من أحد؟

كان ردها لا بالطبع...

ومع هذا الانتظار للرنين وجدت نفسها منساقة إلى النادى وفى نفس الموعد الذى تعودت أن تذهب فيه إلى النادى.. وراقبتها الجماعة وقد حاصرتها عبر ثلاث مناضد حولها.. أربع أشخاص فى

كل منضدة... كانوا يتحدثون ولكنهم كانوا يلاحظونها جيداً.. وأول ما لاحظوه هو أنها لم تعد تجلب معها كتب أو مجلات وأيضاً أنها أصبحت تحدق فى الطريق المؤدية إلى ساحة الجلوس التى هم فيها، كأنها تنظر شخصاً ما فإذا ما انتهت من التحديق فى الشخص الذى لا يحضر من الطريق عادت تنظر إلى الأفق كأنها تنتظر الأفق...

مرت ثلاث ليال وفى الثانية صباحاً من الليلة الرابعة دق الرنين وبعد برهات رفعت السماعة لم ترد أول الأمر.. تمالكت نفسها فقد كانت تشعر أنه هو فغالباً لا يدق الرنين بعد منتصف الليل.. كبحت جماح أنفاسها المتلاحقة وردت

بعد ثوانى جاء صوته المفعم بالهدوء والذكورة

- مها

- نعم

- كنت أعلم أننى سأسمع صوتك أنت دون غيرك من الأصوات ولم ترد.. فأكمل.

- هل لاحظتى أننى أنا الذى أتكلم وأنت لا تتكلمين مطلقاً؟

- أنا لا أجد ما أقوله.

- ربما تكونين خاجلة.

- ربما

- دعى قلبك يتحدث

(فى هذه اللحظة كانت سوزى تعطى رمزى كأساً من الويسكى وتندس تحت الغطاء الوثير عارية فى المهد بجانب رمزى وقد أخذت تقبل صدره العارى فيطالبها بالإمهال حتى يفرغ مما هو فيه.

- قلبي؟

- نعم.. قلبك

- أنت تتسرع

- أنا لا أتسرع. وإنما أحاول أن أكون صادقاً معك.. أنا أتحدث من قلبى ولا أريد إلا أن تتركى قلبك حراً وأنا أعلم أنه سيختارنى.

- هل هذا غرور؟

- بل هو الأمل فى حبك.. فى نظرة من عينيك الجميلتين هذا كل شىء.

- أنا لا أستطيع أن استمر أكثر من ذلك.

- أراك غداً.

- لا أعلم... مع السلامة

ووضعا السماعة

زفر رمزى زفرة حارة فلاحظت سوزى اضطرابه فزجرته بنظرة مستريبة ولكنه ابتسم. دس يده بين نهديها ليخفى شيئاً ما فى نفسه.

أما هى.. مها.. فقد ارتمت فى مهدها العذرى وقد تاهت عن الوجود.. كان صوته يحمل فى ثناياها مزيداً من السلطة فتهوى إلى جارية عن طيب خاطر.. كان صوته مزيداً من السحر يغتالها فيطير قلبها كعصفور فى صدرها فلا تلاحقه ولا تهدئه اغمضت عينيها وراحت فى حلم جميل وقد أخذت الدغدغة تغمر جسدها.

لم تنم إلا ساعة على الأكثر هذه الليلة فقد كانت تنتظر ذلك الموعد المقدس الذى ستراه فيه.. الحادية عشرة..فى هذه اللحظة ستشرق حياتها بوجهه ويغمرها لحظة بهذا الحنين الجارف.

فى تمام الساعة الحادية عشرة كانت مستقرة فى مقعدها المعهود والجماعة المتناثرة على مناضدها فى انتظارها.. وهى كما هى فى كل يوم بين الطريق والأفق وصدق حدسها، بعد دقائق جاء فى ثقة يرتدى قميصاً أحمر قد عكس بشرته الناصعة.. إتجه إليها

مباشرة ابتسم.. ابتسمت.. جلس.. حدق بعينيها.

وجدهما حمراوين تحتهما هالات سوداء فأدرك أنها لم تنم أسرها فى نفسها وتقدم فى طريقه

- أنت مشرقة اليوم.. كعادتك

- أشكرك.

ودار الحديث حثيثاً هو يبحث فى كل كلمة يحاول من خلالها النفوذ إلى غرورها فينفخ فيه بجميل الكلم فيثنى على جمالها وعلى شخصيتها ويتساءل فى لهفة عن مستقبلها ويتعرف على خططها.. يناقش فى اقتضاب ودبلوماسية حتى أدرك كل ما تنويه فى حياتها كانت تحكى وهى سعيدة فهذه أول مرة يستمع إليها شخص بهذا الاهتمام وهذه هى أول مرة تطرح فيها أفكارها الشخصية وآرائها فى الحياة والمجتمع على شخص قد بدأت تميل إليه.

وبالمقابل أخذ يروى لها عن حياة كلها أكاذيب فالحقيقة الوحيدة التى قالها لها هى قد قالها لها فى المرة السابقة فهو فعلا صيدلى وأبوه التاجر اشترى له صيدلية فى مصر الجديدة بعد تخرجه مباشرة أما عبثه فهو متوقع ككثير من أبناء جيله أما ما قاله بعد

هذه الأشياء فكله محصن أكاذيب فمثلاً قال لها أنه أشترى شقة الزوجية من دخل الصيدلية التى اعترف لها أنها من جهد أبيه وهو لا ينكر ذلك ولكنه رفض بعد ذلك أن يأخذ من أبيه أية مساعدات مالية بل أنه يسدد له ثمن الصيدلية على دفعات وأنه على وشك الانتهاء من الماجستير فى الصيدلانيات رغم أنه ليسه كدراً جامعياً ولكنه انتهز فرصة منحة دراسية واهتبلها..

وأنه كثير القراءة وهنا استقى بعض المعلومات التى اقتنصها من مذياع السيارة وأذاعها إليها بدوره فحاورها فى اختصار شديد عن السلام رغم أنه لا يعلم حتى أين تقع أو سلو وماذا تم بها وحدثها عن مشاريع التنمية وذكر لها أسماء وهمية انطلت عليها.. وانتهى الحوار بعد أن أهداها وردة حمراء وقال لها أنه سيطلبها الليلة فى تمام الثانية صباحاً وعندما عارضت قال أنه سيقول لها كلمتين فقط (مساء الخير) ووافقت خاجله. كان من الواضح أنه يتقدم بنجاح فى خطته وما زاده ذلك إلا سعيراً فقد كان يستغل كل الفرصة المتاحة له ويغرس بصره فى جسدها الوردى الرقيق ويحلم معها بليلة تذهب هذه الحمى التى تملكته منها.

وتتابعت المكالمات والضحكات والمحاورات واللقاء حتى شعر أنه تمكن منها وأن مسألة حبها له قد أصبحت محتومة وأن اعترافها له مجرد وقت. فى اليوم العاشر من اللقاء الأول وبعد أن ناورها ساعة كاملة أصر أن يسمع منها كلمة تبرد نار حبه لها.. أراد أن يسمع منها كلمة رضا أو حب فعارضت كلمة الحب بخجل ولكنها أفصحت عن الرضا عنه فاعتبر ذلك أنه حب فى صورة خجولة.

بعد أسبوع وفى محادثة تليفونية بعد منتصف الليل وبينما كانت سوزى تعبث بجسد رمزى كان رمزى مصراً معها على أن تفصح له عن حبها.. ضغط عليها بكل قوة.. توسل إليها أرسل إليها قبلة رهيبة عبر أسلاك المسرة ارتجفت لها أعضاءها وبعد جهد قارب الساعة قالتها فى بطء.

- ب... ح.. ب.. ك

وأغلقت المسرة على الفور.. ارتمت على مهدها وقد أدمعت عيناها الخضروان من شدة الفرحة والتأثر أما هو فقد ارتمى على جسد سوزى البض ربما لينسى شيئاً ما.

منذ أن قالت له كلمة (أحبك) كأنها قد اعترفت بالسيطرة

عليها فراحت تغمره بهذا الحب على خجل وتطالبه بصورة له وبتحديد لقاءات معه ومواعيد ثابتة للمسرة وأحاديثها الرهيبة وكان يستسلم.. متظاهراً.. حتى يحوز ثقتها وساعتها يقتنص البكارة.. فى هذا اللقاء الصباحى بالنادى طالبها بنزهة معه فى سيارته فعارضت لأن الأسرة لن تسمح لها فهى لم تتعود الخروج مساءً إلا مع والديها.. أسر لها فكرة أنها تحضر حلفة عيد ميلاد زميلة لها.. ونجحت الفكرة.. كانت هذه هى المرة الأولى التى تجوب بها شوارع القاهرة بدون والديها ولكن شجعها على ذلك أنهما انطلقا بسرعة جنونية فى شوارع واسعة وقد لفهمها الظلام واضاءة الشوارع الخافتة.

انطلق بها وقد كان يعلم مستقره إنه شارع المطار حيث اصطفت سيارات العاشقين.. كل مع وليفة وثالثهما الحرية.

أقنعها بأنه قد آن أوان أن يتحادثا.. رفضت أن تجلس معه فى مكان عام ووافقت أن تنزوى السيارة فى شارع المطار ليلتقطا أنفاسهما من هذا الطريق السريع.. دس شريط أغنية شبابية بمسجل السيارة أطفأ الأنوار فغرقا فى ضوء خافت.. أغلق زجاج

النافذتين إلا قليلاً فساد هدوء معقول.. ولأول مرة مد يده إلى يدها.. كانت يدها ساخنة إلى درجة أذهلته فأدرك أنها شديدة الاضطراب شديدة الدفء

حدّق بعينيها طويلاً فابتسمت ودارت بعينيها إلى نهر الطريق.. أدار وجهها بأنامله فعاد يواجهه.. ابتسمت مرة أخرى.. اعتصر يداها.. تداخلت الأنامل.. أطلق صوته الذكورى العاصف.

- أحبك.

كانت تدرك أنها على وشك حدث هائل فى حياتها فهى لأول مرة تلمس ذكراً... شعرت أن كل جزء فيها ينتفض حتى شفتيها.

حثيثاً اقترب وجهه من وجهها شعرت بـأنفاسه المفعمة بالدخان وبرائحة عطره الذى جرّبته من قبل عبر الكارت ومازال يهديها نفس العطر ليل نهار.. لم تستطع أن تميز رائحة غريبة فى أنفاسه.. لفحتها أنفاسه فعصفت عينيها كأنها تستسلم لقدر حتمى.. إلتقت الشفاة فى قبلة عميقة.. صرخت من أعماقها (ما هذا) كانت أول تجربة لها مع ذكر.. كانت أعماقها قد ارتوت من قبل حناناً إثر ذلك الحب العذرى الذى احتواها ولكن مع هذه

القبلة تفجرت فيها أشياء أخرى.. كانت هناك متعة تسرى مع شفتيها إلى أوصالها كانت هناك قشعريرة تنبثق من شفتيها إلى جسدها كله نهد ثدياها.. تلاحمت ساقيهما.

أدرك أنها تتذوق العسل لأول مرة فى حياتها.. شعر بهذا الانقياد اللذيذ فهمى عليها.. ها هى اللحظة التى كان ينتظرها.. لحظة الاستسلام لحظة سقوط الفريسة فى الشبكة الحقيقية.. عبث بها.. لم يترك موضعاً لم يلمسه أو يطحنه.. فك أزرار ثوبها فانكشف الصدر فحولهما إلى جمرتين من لحم ودم لم يتركها إلا وهى فاقدة الوعى.

تهدجت أنفاسه نظر إليها وقد تدثرت فى إغفاءه عذرية بريئة.. كان من الممكن أن يستطرد العبث بأعضائها ولكنه آثر أن يفيقها فقد بددت هذه الاغفاءة العذرية شيئاً من رغبته.. هزها برفق.. ربت على خديها.. استفاقت قالت من خلف الدغدغة.. أين أنا؟

كان كل الباقى سهل.. زررت ردائها.. أدار السيارة.. وصلت إلى البيت ومنه إلى حجرتها.. ارتمت على سريرها.. شعرت أن شيئاً ما داخلها قد تغير.. كانت هذه القبلة وهذا العبث الحد الفاصل

بين العذرية وبين غيرها.. اشتدت أزمتها فقد كانت تكابد بالأمس القريب ذلك الحب والحنان اللذان رويا صحراء حياتها القانونية ولكنها الآن تكابد ذلك اللهيب المنبعث من جسدها يحمل توقيع عبث حبيبها بها فاستجابت له كل أعضائها وجدت نفسها تحتضن وسادتها البيضاء.. تضمها بعنف إلى صدرها وبطنها وساقيها..

تساءلت عن هذا الاجتياح اللذيذ وتساءلت عن مقاومتها التى أصبحت فى مهب الرياح..

وبالطبع لم تنم فى هذه الليلة وبالطبع أصبحت أسيرة القبلة والعبث بل أسيرة نداء الجسد لم تعترف أولاً بسطوة المتعة عليها ولكن هذه المتعة كانت تدفعها دفعاً إلى الاحتكاك برمزى.. لمسه مصافحته وبالطبع تقبيله... لم تطلب هذه القبل ولكنها لم تعد تمانعها..

وتكرر مشهد السيارة بطريق المطار وشيئاً فشيئاً ذهبت الاغفاءة وأتت اليقظة بل والاشتهاء والانتظار حتى تصل إلى ذروة انفعالها فتبكى من شدة النشوة ساعتها تساءل رمزى فما بالها لو ارتوت كما تدرى سوزى؟ فى هذه الليلة عرض عليها أن تحضر إلى شقته ليكونا على راحتيهما ولكنها داهمته بمطلب آخر وهو لماذا

لا يزور أهلها فى البيت ويطلبها للزواج؟ كان السؤال مفاجأة ولعل هذه المفاجأة هى التى أنقذتها من الخطة المحكمة فعلى الفور زاغ بصره ولم يجد إجابة.. فكر دقيقة كاملة كانت كافية أن تقضى على رغبتها المتأججة وتثبت فيها شكاً جديداً.. كان السؤال منطقياً وبسيطاً وبديهياً وهكذا فالتردد أوحى لها بأن ثمة شيئاً يدور فى ذهنه لا تفهمه.. تدارك كل هذا فى سرعة وقال لها بعد أسبوع سأحضر إلى البيت.. كان قد قرر فى سرعة أن هذا الأسبوع سيشهد نهاية القصة بالكامل.. سيوقع بها فى الشقة قبل نهاية الأسبوع وتراها الجماعة عارية كما وعدهم.. تلك الجماعة التى أصدرت حكمها عليه بأنه لم يعد دون جوان وأنه فشل معها فقد انقضى الشهر ولم تقع فى الشبكة. كان الهدف واضح وهو البكارة والعرى والفضيحة لا تلك القبلات الهائمة والعبث المراهق على قارعة طريق المطار... كان هدفهم واضحاً وقد أصبح رمزى هدفاً لهم. كانت سوزى هى صاحبة التصميم على فض البكارة والعرى وهى التى أشعلت السخرية ضد رمزى فأصبح الأمر برمته مسألة كرامة.. ولكن هذا السؤال الالهامى أنقذها.. أدرك عقلها الذى كان لا يزال

يعمل ببعض قليل من قوته أن ثمة شيئاً غريب يدور حولها.. قبل هذا السؤال وبدافع من تيار الحنان الذى غمرها وطوفان الرغبة الذى اكستحها كانت على استعداد أن تذهب معه إلى المريخ لا إلى مجرد شقة وكانت تعلم أنها ستذهب من أجل أن تظفر معه بلقاء جميل بعيداً عن العيون.

بالطبع لم تكن تتعمد لقاءاً جنسياً ولكن كان أملها فيه أن تظفر بالقرب والحب والحنان وبالقبلة الرهيبة وبهذا العبث الذى يحيلها إلى مخلوق فى عالم آخر، لم تكن تدرك بالطبع أن فى العزلة وفى الشقة البعيدة لن تستطيع أن تكبح جماح هذا العبث وتتحول إلى امرأة فى دقائق...

ألح فى الانفراد بها بالشقة ولكنها أبت وأصرت مع تمسكه بالأمر وكان هذا كفيلاً بتعديل الخطة المحكمة.

اقترحت سوزى نهاية جديدة للخطة قبل الأسبوع الذى حدده رمزى وهى ببساطة أن يداهمها مها وهى نصف عارية فى السيارة فى طريق المطار...

حدد معها موعد ليشرح لها كيف سيحدد الموعد مع أبيها

وماذا سيقول له، وأطاعت وحدد لها خطة وهمية بكل التفاصيل وبعد إتمام التفاصيل انطلقا إلى عالمهما من التقبيل والعبث كانت الإشارة هى أن يضغط ضاغط أنوار الانتظار هذه هى لحظة المداهمة الخارجية أما الداخلية فهى أن يثيرها إلى درجة عدم المقاومة فيسقط عنها نصف ردائها فتكون لحظة العرى الذى بحده الأدنى.. يرضى غرور الجماعة، واستسلمت وصال وجال ولم يتوقف رغم مناجاتها له بالتوقف. تحول إلى ثور كاد يمزق ردائها فطاوعته وهبط الرداء العجيب إلى الخصر وفى لحظة انطلقت أضواء الانتظار الأربعة فى أركان السيارة وفى لحظات داهمتها الجماعة بيمينهم زجاجات الخمر وبيسراهم السجائر البانجوية لأول وهلة لم تصدق.. من هؤلاء؟ سمعت أقوالهم التى مزقتها

- هذه حقيقتك يا بتول
- مجرد عارية
- اللعبة واضحة
- المباراة انتهت؟
- خدعك رمزى والسلام.

- دارى نهديك الجميلتين يا معيدة القانون.

- تخصصى فى قضايا الآداب

- اشربى.. اشربى يا صغيرة.

- معلهش.. خيرها فى غيرها.

ارتدت ثيابها وقد احتواها الذهول كل ما رأته أن رمزى – حبيبها – قد التقط منهم سيجارة أخذ يدخنها بشراهة وقد أولاها ظهره

أدركت كل شىء.. أدركت أن الأمر مجرد لعبة.. كم كانت كلمة لعبة رهيبة الوقع على نفسها.. خرجت من السيارة المحكمة غلق زجاج نوافذها..

كانت تجرى على الطريق ودموعها تهطل ودمها ينزف ذلك الفجر الزائف الذى أطل بحياتها كانت تجرى ذاهلة هاربة من كلماتهم التى ترجمها تعذبها تسحق كبرياءها وشرفها.. ولكنهم لم يتركوها فقد طاردوها بالسيارات الفارهة وقد اختلفت ألوانها وارتفع ضجيجها.. حاصروها بالسيارات فركضت أكثر وأكثر وبكت أكثر وأكثر.. طاردوها وهى لا تعلم لماذا يصرون على هذه الإهانة الرهيبة.. حتى انزوت بين الناس فى احدى الطرق الجانبية...

لم تعرف كيف وصلت إلى حجرتها وكيف ارتمت فى مهدها الذى لم يعد عذرى فقد شهد أحلامها ورغبتها.. احتقرت كل شىء.. احتقرت رمزى أشد الاحتقار ولكن المفارقة أنها لم تستطع أن تتخلص من حبه بل عاودها أمل فى أن يعود إليها من جديد. هى لم تعد تعلم هل هذا الأمل كاذب ليخفف من هول الصدمة أم حدس من قلبها ومن انوثتها لا يخيب أبدا..

السؤال الذى سيطر عليها لماذا فعلوا ذلك؟ ولماذا أصروا الإصرار الانتقامى العجيب على اهانتها؟

خلّف هذا الإصرار لديها نفوراً شديداً من الناس ومن المجتمع.. هذا المجتمع العابث اللاهى الذى يستهين بكل شىء بالكرامة والحب والاحترام وقد تفرغ إلى الانتقام.. دارت ذاكرتها مع الوجوه التى رأتها الليلة فأدركت أنها نفس الوجوه التى كانت تحاصرها على المناضد كانت تتساءل لما لا تتغير هذه الوجوه من حولها؟

والآن فقط علمت لماذا لم تتغير الوجوه فقد كانت هناك خطة محكمة للإطاحة بكبريائها.. أعملت فى الأحداث عقليتها القانونية أخذت ترتب الأحداث وتتذكر أدق التفاصيل أدق اللمحات أدق

النظرات أدق الضحكات ورتبت الأحداث بناء على كل ذلك.. كانت تريد أن تصل إلى الحقيقة وأدركتها.. كانت الخطة هى شرفها.. بكارتها.. الشقة.. الخلوة وبالطبع كان كل ما قاله رمزى لها مجرد أكاذيب ليست مضطرة إلى إثباتها.

- أدركت أنه كان كذوباً وحقيراً ومنافقاً..

تساءلت كيف ستواجه المجتمع.. المزعوم.. بعد كل ذلك؟ كيف وقد تعودت أن تكون جبهتها فى السماء تواجه هذه الشرذمة العابثة؟

كيف ستقنع الجميع ببراءتها وأنها لم تكن أبداً لعوباً وإنما هو الخداع والبراءة التى أصبحت فى مجتمع لا يحترم إلا افتراس الصياد بل يحول هذا الافتراس إلى شجاعة وفروسية ونبل ويروح ينكل بالضحية؟

وماذا عن الحب؟ ذلك الحب الذى لم تكن تعرف أنه جميل إلى هذا الحد فإذا به هو الطريق إلى شبكة الصياد؟!

اكتسحها شعور عميق بازدراء كل ما حولها بما فيه نفسها لأنها سمحت لنفسها أولاً أن تحب ولأنها سمحت لهذا الحب أن يتحول إلى محادثات تلفونية ومقابلات خارج حدود المقبول ثم إلى رغبة جنسية.. نعم رغبة جنسية، إنها لأول مرة تعترف بهذه

الكلمة.. اعترفت أنها كانت تحت رحمة رغبتها وأن هذه الرغبة لولا لمحة عقلية غير مقصودة كانت ستحيلها إلى رفات امرأة فى قبر المجتمع المزعوم.

فكرت فى التخلص من كل هذا الخداع والازدراء والرغبة والانتحار.

سيطر عليها هذا الشعور ولكنها أدركت بعقليتها القانونية أن هذا الانتحار سيثبت انتصار الشرذمة العابثة عليها وأن الانتحار فى حد ذاته ليس عملاً نبيلاً وإنما هو صورة من هروب كبير.. وتساءلت تهرب مِن مَنْ؟

أمن مجتمع كل ماله هو القيل والقال؟ مجتمع لم يستطع حتى هذه اللحظة إقامة حياة سليمة فى أى اتجاه فلا عدل ولا ثقافة ولا علم ولا رياضة؟ أمن شرذمة عابثة ماجنة تهرب وتتخاذل؟!

كفكفت دمعها وأطالت النظر إلى فروع شجرتها الصامدة وإلى كتبها القانونية المتراصة فى دقة ونظام وإلى صورة والديها وقد استقرت على مكتبها الأنيق.. وقفت وهتفت: لا.. لن أسمح لهذا المجتمع أصلاً أن يحاسبنى.. لقد أخطأت والمجتمع كله أخطاء وانهيارات وتصدعات. أنا لن أتحول إلى أضحوكة على السنة مجتمع

ينهار.. لا.. لن أسمح لمجرد شرذمة عابثة أن تدمرنى.. أنا أنا ولن أسمح لأحد أن يهدمنى. أصلحت من هندامها وقد قررت أن تواجه هذا المجتمع.. ستنسى كل ما حدث أو ستحاول أن تنسى وستذهب إلى النادى وستواجه الجميع بصرامة وقوة وستذهب إلى الجامعة وتكمل مشوارها العلمى وستحقق حلمها بأن تكون معيدة للكية فى يوم من الأيام.

فى غمرة كل هذا كان ثمة أشياء لا تستطيع مقاومتها رغم كل قوتها وثورتها أولاً أنها مازلت تحب رمزى وبجنون فهو مازال الذكر الأول فى حياتها هو أول من أسمعها كلمة الحب وأول من لثم شفتيها وأول من عبث بجسدها وفجر بها ثورة الأنوثة.. اعترفت فى حسرة نعم.. هو الذى حولنى إلى أنثى.. وثانياً أنها لم تستطع مقاومة حدساً يقول لها أن ثمة شيئاً غير متوقع سيحدث ولكن ما هو.. لا تعرف؟!

وانتصف الليل وقد قررت أن لها جولة مع النادى غداً.. ستذهب إلى هناك فى قمة الأناقة وسترتدى نظارة الشمس الذهبية الرائعة وسيكون بيمينها مجلة حواء فهى حواء وستظل حواء.

أما رمزى فقد كانت ليلة صاخبة فهذه الليلة هى احتفالية نصر الجماعة على مها.. تبرعت سوزى هذه المرة بالفيلم الجنسى كان أمريكيا كما قالت والباقى تبرع بالسجائر البانجوية والخمور.. ودارت الكؤوس..

كانت سوزى صاخبة فى هذه الليلة تضحك فى هيستريا وتدخن فى جنون وتشرب الخمر فى شراهة وأدرك رمزى ذلك ونبهها إلى شراهتها الليلة فقاومته وسخرت منه ومن فشله فهو لم يصل إلى رغبته مع مها.. واحتدم النقاش حتى صفعها.. خرت باكية.. حاولوا أن يساعدوها على النهوض ولكنها رفضت صرخت والدموع تهمى من مآقيها:

لماذا لا تعترف يا رمزى.. أنت تحب مها.. نعم أنت تحب مها هى التى اصطادتك يا دون جوان يا أوسم شباب مصر والنادى أنا أول من شعر بذلك.. مضاجعتك لى لم تعد بحرارتها الأولى.

صرخ فى وجهها.. أنت مجنونة.. مجنونة.

- لا أنا لست مجنونة.. أنا أنثى والأنثى لديها دائماً الحدس الذى لا يخيب الأنثى هى التى لا تستطيع أن تدرك الحب دون كلام.

أنت لم تعد تحبنى يا رمزى.. هى التى اصطادتك..

هجم عليها أوسعها تقبيلاً فارتدت عنه صرخ فيها.. أحبك

لم تتحدث وإنما ولجت إلى حجرة النوم فى هدوء شديد.. ساد الوجوم ولكن ما لبث أن دارت الكؤوس وارتفعت الضحكات ساخرة من كل شىء من مها وسوزى ورمزى والخطة المزعومة والحب.. تابع رمزى سوزى.. أغلق الباب.. كان يود

أن يهزم الحب بداخله.. لقد شعر بالحب فعلاً يتقدم حثيثاً بداخله حتى احتواه.. رفض هذا الحب وقاومه بكل قوته.. فهو من ناحية لا يريد أن يكون هو الفريسة ومِن مَنْ؟

من فتاة بريئة ليس لها سابق تجربة فى عالم الرجال؟! ومن ناحية لا يريد أن يكون موضع سخرية من الجماعة كلها ومن أخرى أن هذا الحب سينتشله من هذه الحياة الماجنة العابثة التى ارتضاها.. كان هذا الحب يشعل الثورة على هذا العبث فكيف يستقيم هذا الحب مع هذه الحياة الماجنة العابثة الخالية.. إن حبيبته تود أن تكون عميدة لكلية الحقوق وربما عضو مجلس شعب كيف سيلتقى بهذه الشخصية فى المهد وهو يعلم أنها أنقى وأفضل وأعظم منه؟!

غمس نفسه فى جسد سوزى الأبيض.. كان يريد أن يثبت لها أنه لا يزال يحبها هى، وهى فقط فألهبها جماعاً جنونياً كأنه يطارد شبح مها المنبعث فى نفسه كأنه يثبت لسوزى أنه مازال يحبها هى وها هو هذا الجماع الوحشى يبث ذلك ومن جهة أخرى يهرب من آثار هذا الحب الذى يعلم هل يموت أم مات.

أما سوزى فقد أقبلت عليه بوحشيتها هى الأخرى كأنها ترتشف من رجولته قبل أن يفارقها وكأنها تتأكد من حبها له عبر السخونة..

وانتهى الجماع ولكنهما فشلا.. أدرك أنه يحب مها وسوزى لم تنخدع بالشرر فقد كان الجمار كاذباً تماماً كالفجر الكاذب الذى أشرق بحياة مها؟! لم يسمع من رمزى وسوزى إلا أنفاس متهدجة تدريجياً هبطت وساد الصمت والوجوم والحيرة.

فى الصباح التالى شقت مها طريقها إلى مقعدها بما صممت عليه من ملبس وسلوك.. هالهم هذا الكبرياء العائد خاصة أنها لم تتأثر ولم تلتفت لأى عبارات لأى عبارات شامتة سمعتها من هنا وهناك.. كان رمزى فى منتصف الجماعة واجماً... أصر على الحضور وقد سحقته رغبة عارمة حارقة فى أن يراها..

ورآها شامخة كعادتها.. لطمته بهذا الكبرياء فتمكن حبها منه أكثر رغماً عنه.. وما هى إلا لحظات حتى استأذن وانصرف تاركاً سوزى والجماعة حائرين.

مضى شهر كامل بين الكبرياء المتصاعد والحب المتمكن من رمزى حتى سلّم.

أدرك أن ثمة شيئاً لابد أن يحدث بحياته فهو لا يستطيع أن يترك هذا الحب الكبير الذى أحياه من بعد موت وبث فيه الكثير من الرجولة والإرادة.

قرر أن يصارح مها بكل شىء وأن يطالبها بأن تعود إليه وسيكون صادقاً هذه المرة.

فى الليل هاتفها كانت محادثة عنيفة قابلتها مها بكثير من برود وازدراء وأغلقت الخط... عاود المحاولة خمس مرات حتى استجابت له فى الحديث.

كانت ناره تشجيها تذكى الحب الكامن فى نفسها ذاك الحب الذى لم تستطع أن تقتله.

ودار الصراع مرة أخرى.. ها هو الفجر الكاذب يصير حقيقياً

مشرقاً بل مضيئاً متلهفاً وما عليها سوى أن تغفر وتبدأ من جديد..

ها هو نداء الحب يناديها فلماذا لا تجيبه وثار ذهنها القانونى وكيف تستجيبين إلى مخادع عابث مستهتر وكيف تضمنين أن الأمر كله مجرد متعة لم ينالها متعة كتلك المتعة التى لا تزال تمتلكها إلى اليوم.. رفض عقلها هذا الحب ونادتها أنثاها صاحبة الحدس بالانتقام.

شعرت بنشوة لسبب آخر هو أن ذلك الحدس قد أصاب فها هو الشىء الغير متوقع يحدث فها هو سيجيئ راكعاً طالباً السماح راجياً الحب والإخلاص.. اليس هذا هو حس الانسان؟!

اختمرت الفكرة فى ذهنها.. وقررت أن تقابله.. رفضت أى مكان خاص وأصرت أن يكون اللقاء فى النادى وفى مقعدها وبصحبة منضدتها ولابد أن تكون الجماعة كلها محاصرة لهما كالعادة دون أن يتكلموا على الإطلاق.

كانت خطته أن يقابلها وأن ترضى بهذا اللقاء وهو على ثقة أنها تحبه وأنه عندما يشرح لها موقفه الجديد ستوافقه حتى ولو بعد تعب...

حدد الموعد.. شقت طريقها فى ثقة وكبرياء.. نظروا إليها فى حسرة

وإعجاب تقدم إليها.. كانت ملامحه واجمة.. لم تتحدث وإنما كأول لقاء أسهب وصال وبرر ووعد وأقسم أنه هذه المرة صادق. فى هذه المرة كانت هى من تحاصره بعينيها الخضرواين دون نظارتها الذهبية.

بينما هو زائغ النظرات.. تدور عيناه فى محجريهما.. عندما أنهى حديثه ساد الصمت عدة دقائق وهى لا تزال جامدة النظرات حادة الملامح شديدة المراس.. كان الموقف يفرض أن ترد على كل ما قاله وما أكثر ما قاله.. فى كثير من ثقة لملمت أوراق مجلتها.. ثبتت نظارتها على عينيها.. مسحت يمناها على شعرها تكبحه... وقفت فوقف..

نظرت إليه ملياً.. فى حركة مفاجئة صفعته صفعة رهيبة بيمناها هوت الصفعة على الجميع كالصاعقة حتى أن بقية الجماعة انتصبت على الفور.. الأدهى من ذلك أنها لم تمرق إلى الطريق بل قالت فى ثقة: الخميس القادم خطبتى فى فيلتنا. أنت وجماعتك بالطبع محل دعوة.

وسارت فى كبرياء.. كان هذا ما ردت به على الخداع ولكن حبها كان لا يزال ينبض بنفسها.. لقد كان قرارها واضحاً.. قتل هذا

الحب.. سحق الفجر الكاذب.. ستحب خطيبها القادم.. هى على ثقة من ذلك ولسوف يجىء فجر صادق تتخلص به من هذا الحب الذى خلف بها الأنثى والمتعة وانتزع منها الإخلاص فما يبقى إذن من أى عمل دون هذا الإخلاص؟

أما هو فقد كانت الصفعة طوفاناً من الأفكار.. أتت على رجولته الهشة التى كانت تقتات على العبث والمضاجعة فى حرام.. أفقته على واقع أليم يعيشه هو العبث والندم وبددت من ذلك الأمل الضائع فى أن يستعيد حبه.. هذه الصفعة جعلته يتساءل بأى شىء كنت سأتزوجها؟ هل بفحولته التى أشجت سوزى؟ أم بحياة عمادها أبى فهو رغم الصيدلية مازال يعتمد على أبيه فى نفقاته الباهظة؟! قرر شيئاً ما حاولت الجماعة التخفيف عنه فقرروا إقامة حفلة فى الشقة للاحتفال بأى شىء ودعمت سوزى المنتشية الفكرة.. ووافق رمزى ولكنه وافق موافقة المخمور من هول الصفعة التى داهمته فغمر عقله فيض من انتقام وحب آمل ضائع وقرار قد بدأ يتشكل بأعماقه..

وجاء الليل ودار الفيلم الجنسى ودارت معهم الكؤوس

والسجائر البانجوية ولكن فى هذه الليلة لم يحتمل... حاصره الضجيج الضاحك والانفاس اللاهثة والأنات النارية والأصوات الهائجة.. ملّ من كل ذلك.. مل من الجماعة العابثة ومن سوزى ومن حياة المجون.. انتصب واقفاً صارخاً... لا

أغلق الفيديو الدائر.. حطم زجاجات الخمر.. سحق السجائر البانجوية تحت أقدامه.. طردهم جميعاً بما فيهم سوزى.. قال أشياء كثيرة فى ثورته.. قال أنه يريد أن يحيا حياة جديدة نظيفة طاهرة.. سيحقق كل ما قاله لمها من أكاذيب سيحولها إلى حقائق سيدرس دراسات عليا ويهتم بصيدليته المنهوبة وسيذهب إلى أمه التى غضبت عليه لأنه يشرب الخمر... قال الكثير من التنفيثات ولكنه كان يدرك وسط هذه الثورة العارمة أن ثمة شخصاً جديداً يتشكل بداخله. شخص يحرقه حب يمتلكه وماضى ينبذه ومستقبل لا يقيمه إلا الإرادة.. كان الشىء الوحيد الذى يحيره هو مَنْ يقوده فى هذه الحياة ليصل إلى مبغاه؟ أنه لا يعرف قدوة واحدة يهرع إليها لتنقذه من هذا الجحيم.. فلمن يذهب ولمن يلجأ بهذا العالم الذى على رغم اتساعه يجد نفسه فيه بدون قدوة ودون طريق ودون صديق..؟!

ج – سعاد تدق الأجراس

أنا التى أريد التحدث عن نفسى لا أى شخص آخر.. أنا فلاحة بسيطة اسمى سعاد.. البنت الكبرى لأسرة كبيرة من أب وأم وسبعة أخوة.. عمرى ثمانية وعشرون عاماً.. أخرجتنى أمى من المدرسة بعد العام الأول من دراستى لأنها كانت فى حاجة إلى مساعدتى فى تربية اخوتى وبالتدريج ظفر اخوتى الذكور بالتعليم حتى دبلوم الزراعة والتجارة وسافروا إلى العراق والسعودية بعد ذلك. أتذكر تلك المرات التى ذهبت فيها إلى كُتاب الشيخ أحمد لحفظ القرآن الكريم، وبالفعل حفظت قصار الصور ولكنى الآن نسيت معظمها.

أنا الآن أسير على الطريق الزراعى المؤدى إلى قريتى الصغيرة من المركز الكبير.. نعم.. أنا باكية حزينة ولهذا كله قصة.

تزوجت من ستة أعوام من شاب جميل.. بالمناسبة أنا لا أعرف ماذا تعنى كلمة رجل ولم أكن أعلم تلك العلاقة بين الرجل والمرأة إلى أن تزوجت وصدمت هل هذا معقول ؟ يادى الكسوف..

المهم أننى تزوجت منه، من زوجى. وهو شاب يافع درس حتى دبلوم المدرس الصناعية قسم الخراطة وقد أحبنى رغم أننى لم أتعلم.. هكذا قال لى بالطبع صدقته لسبب بسيط.. هو لماذا أكذبه وقد جاء إلى أبى يطلبنى للزواج... أليس ذلك يثبت حسن النية.. بالطبع نعم هكذا أقول.. لم يكن زوجى غريباً عن قريتى فهو منها لهذا فهو يعرف كل أسرارنا ويعلم حالة الفقر الشديد التى عليها أسرتى إلى الدرجة التى أخرجتنى من المدرسة لأساعد أمى فى شئون الدار وتوفر المصروفات للذكور فيتعلمون. لهذا فقد صبر زوجى ثلاث سنوات هى فترة الخطوبة إلى أن ساعدنى اخوتى الذين سافروا إلى العراق والكويت والسعودية بالمناسبة كانوا يعملون فى أى أمر لأن الحياة فى القرية مستحيلة.

أحب أن أذكر هنا أنه على الرغم من سنوات خطبتى الثلاثة ألا أننى ما خرجت من خطيبى وزوجى أبداً. كان أبى شرساً جداً فى هذا الأمر وكان يردد دائما لزوجي: (عندما تكون فى بيتك افعل بها ما شئت أما هنا فى بيتى فلن تراها ولن تلمسها طالما أنا حيّ.

وقد نزلت هذه الكلمات برداً وسلاماً على قلب زوجى فقد

تأكد أننى شريفة رغم فقرى الشديد.

كان الفقر متبادل بينى وبين زوجى لهذا فقد صبر حتى يساعدنى اخوتى المسافرين وصبر أبى أيضاً حتى تتزوج اخته فنحصل على غرفة شاغرة بالبيت الكبير.. هكذا كانوا يسمون بيت أسرة زوجى (البيت الكبير).

وبالفعل شغرت الحجرة وبدأ زوجى فى تأسيسها.. كان كل شىء بطيئاً نعم ولكنه كان شديد الثبات.. وبعد السنوات الطويلة كانت ليلة الدخلة أمى قالت لى أشياء كثيرة بخصوص هذه الليلة وأصارحكم بأننى لم أفهم من كل ما قالت شيئاً ولكنى فهمت جملة واحدة هى (دعيه هو يعمل كل شىء)

بالمناسبة.. أنا جميلة.

فى أول ليلة لى بالبيت الكبير وقبل دخولى إلى حجرتى التى ستصبح كل عالمى، اجتمعت الاسرة كلها خاصة الاب والأم والأخ الأكبر لزوجى أستاذ فهمى مدرس اللغة العربية بالمدرسة الإعدادية بالقرية.. قالوا أيضاً أشياء كثيرة ولكنى فهمت منها شيئاً واحداً أننى أصبحت فرداً أصيلاً فى الاسرة ودخلت إلى الحجرة وأنا أعتذر عن

التفاصيل فأنا كما أننى جميلة فأنا خجولة...

أنجبت ولداً وبنتاً وقرر زوجى بعدهما ألا ننجب فهو لا يريد أن يكرر مأساتى ومأساته فالأولاد الكثيرون سيجهدوننا ولن يتعلما وسنعيش جميعاً حياة بؤس وفقر خاصة أن راتبه الأسبوعى والذى يتقاضاه من الورشة كان يكفى بالكاد.

أود أن أقول شيئاً أن حياتى كانت سعيدة جداً رغم الفقر وأننى لم أشعر بالغربة فى البيت الكبير لا لأن أبى وأمى كانا يزورانى باستمرار وبطريقة دورية ولكن لأن والدىّ زوجى كانا يحبانى ويكاد.. يحملانى من على الأرض خاصة بعد الانجاب..

وأود أن أقول شيئاً آخر أننى أحببت ذلك الشىء الذى أخجل أن أحدثكم عنه إلى درجة الجنون خاصة أن زوجى كان يداوم عليه يومياً ماعدا الأيام التى أكون حائضاً بها.

كان زوجى طموحاً لطالما حدثنى عن آماله فى أن ينشأ ورشة خراطة له وساعتها سينفق علىّ مالاً وفيراً.. كان يقلقه دائماً المستقبل لهذا فقد كان شديد الحرص على ولدينا وكان دائماً يقول (وصيتى يا سعاد إن حدث لى مكروه أن تعلمى ولدينا حتى الجامعة).

كانت الجامعة لغزاً بالنسبة لى وتساءلت ماذا تعنى هذه الكلمة هل هى مثل الجامع مثلاً يصلى فيها الناس؟ كان زوجى يضحك عندما يسمع ذلك ويقول شارحاً: (الجامعة مكان العلم فى كل المجالات ولا يوجد حياة محترمة لأى شعب بدون جامعة) لم تروى هذه الكلمات عطشى عن الجامعة فرحت إلى الأستاذ فهمى الأخ الأكبر لزوجى فقد كان جامعياً وسألته عن الجامعة فأسهب فى الشرح حتى أننى ندمت وحزنت على تركى التعليم.. هذه الاحاديث عن الجامعة أى الحلم الكبير بثت فيّ روح التعليم ولكنى كنت مشغولة جداً بين أعمال البيت الكبير التى لا تنتهى وأمور ولدىّ وأيضاً احتياجات زوجى التى لابد أن البيها فهو زوجى وعالمى الكبير الصغير وحياتى وكيانى وحبى وقلبى وروحى.

كما أننى كنت أخجل فقد كنت اشعر أننى قد كبرت على التعلم.. أُسِرها لكم لقد أكننت هذه الرغبة فى نفسى ولم أطلع عليها أحد.

كانت حياتنا برغم صعوباتها تمر هادئة إلى أن جاء اليوم الأسود.. قال لى زوجى أنه سيلتحق بالجيش...

وهتفت: جيش؟ أى جيش؟! ضحك وقال لى (إنها ضريبة الدم كما يقولون) وتساءلت (ما معنى ضريبة الدم؟) ورد إنها الخدمة العسكرية ولابد أن أستجيب بعد التأجيل الذى منحوه لى.

كان الأمر محزناً لأن هذه الخدمة ستحرم زوجى من العمل وبالتالى من مصدر رزقه وهذا يعنى التشرد ويعنى أيضاً تعرض حياته للخطر فأنا أفهم أن الجيش يعنى الحرب.. هدئ فهمى من روعى وقال إن البلاد تمر بسلام مع العدو وأن المسألة مسألة مبدأ.. نعم هناك خسائر ولكن لابد من ضريبة الدم فهذا شرف رغم كل شىء.. وما طمأننى أكثر أن زوجى فاجأنى بأنه يدخر مبلغاً محترماً لهذا اليوم الذى كان يعلم أنه سيأتى حتماً.. هذا المبلغ فك أزمة كبيرة... على العموم كان زوجى يؤرقه شيئاً واحداً هو بعده عنى وقد عذرته فى ذلك فقد كنا نتحاب إلى حد كبير ولكنه قال لى يوم ذهابه إلى المعسكر (أن هذه هى الخطوة الأخيرة وبعدها سيسافر إلى العراق من أجل العمل وساعتها ستكون المسألة مجرد سنوات قليلة ليعود ليفتح الورشة ويأمن المستقبل).

أنا لا أريد أن أتذكر ما حدث بعد ذلك لأنه كئيب فقد قالوا

لى أن صدام حسين قد أحتل الكويت وأن هناك حرباً وشيكة فى الخليج قالوا لى أنها الحرب الثانية أو الرابعة لا أتذكر الآن الرقم ولكن على ما يبدو أن حروب الخليج كثيرة.

وعرفت أيضاً أن زوجى قد ذهب إلى السعودية من أجل الحرب.. كان فهمى ثائراً ولكن كما قال: كان مشلولاً.

أتذكر جيداً المناقشات المطولة حتى الفجر بين الأستاذ فهمى والشباب وإمام الجامع الشيخ عبد الواحد.. كان الكل ثائر ولكن الجميع لم يصلوا إلى حل واحد إلى أن قال الأستاذ فهمى إنه الفتنة.. لم نعد نعلم من على حق ومن على باطل.. القول الآن للسلاح.. للقوة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كان كل ما يشغلنى أن زوجى قد ذهب لهذه الحرب التى قالوا لى أنها لتحرير الكويت.. أنا لا أعرف الكويت ولا العراق ولا السعودية ولا أمريكا ولا اليهود أنا أعرف أن زوجى قد ذهب إلى الحرب ومن المحتمل أن يموت.

مرت الشهور بطيئة مملة ومعها تحتدم المناقشات وتحتشد القوات آلاف الآلاف من الجنود ومئات الطائرات.. قالوا لى أن العالم

كله احتشد لضرب العراق وتحرير الكويت وقالوا أيضاً أن الحرب أصبحت حتمية خاصة بعد أن رفض صدام الانسحاب...

كم كنت أتمنى أن ينسحب صدام حسين من الكويت وتنتهى الحرب ولكن هذا لم يحدث قالوا أنه عنيد ولن يتراجع ولسوف يضرب بالكيماويات وربما بالذرات واكتسحنى الرعب.

بعد أيام طويلة تخللتها الحرب التى امتدت طويلاً قالوا أن العالم قد انتصر على العراق وأن صدام انسحب من الكويت بعد أن أحرق آبار البترول.. قالوا أنهم حطموا العراق وأن صدام انسحب من الكويت بعد أن أحرق آبار البترول..قالوا أن العالم قد أنتصر على العراق وأن صدام انسحب من الكويت بعد أن حرق آبار البترول.. قالوا أنهم حطموا العراق... نسيت أن أقول لكم أن أخى الأكبر الذى كان يقيم فى العراق رجع إلى مصر دون ماله فقد رأى أن ينجو بنفسه من الهلاك وقبل أى شىء آخر.. كان أخى شديد الحماسة كان يتمنى أن ينتصر صدام فى الحرب ولكن الأستاذ فهمى كان يقول له كيف سيهزم العالم؟! ثم يقول لا تكن ثورياً يا عزيزى فهذا هو الواقع الأليم ثم يقول لا تنسى أن العراق قام

بعمل همجّى أرجع العرب مئات السنين إلى الخلف.

ولكن أخى كان يرفض كل ذلك وكان يقول أن الكويت جزء من العراق وأن ما فعله صدام كان من حقه وأن صدام هو مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ العرب وأنه قد خاض حرباً طويلة ضد إيران ليمنع الشر الفارسى من أن يمتد إلى أرض العرب فالعراق هو البوابة الشرقية للوطن العربى.

لا أتذكر المناقشات الحادة بين أخى والأستاذ فهمى ومعهما الشباب لأنها كانت مناقشات عقيمة ضاعت منها الحقيقة وقد عرفت ذلك لأنهم كانوا يخرجون منها بلا شىء كبير.

انتظرت عودة زوجى وقد طالت الأيام رغم قلة عددها.. كان قلبى يحدثنى أن ثمة شيئاً قد حدث كان هذا هو حدس الأنثى التى بداخلى أو لنقل أن هذا هو قلب تعلق بالحبيب وقد أمل فى رحمة الله جاءت اللحظة السوداء قالوا لى أن زوجى قد مات بالحرب..

يا إلهى كما هى أقدار حزينة..يارب هل كان يجب أن يحدث هذا لزوجى وحبيبى.. قالوا لى استغفرى الله فهذا أجله ولكل أجل كتاب..

دفناه فى مقابر القرية بعد أن حملوا جثمانه من مكان لا

أدريه إلينا حتى أستاذ فهمى صرخ فى الناس أثناء الدفن وقال فى صوت باكي: إن الذى قتل صبرى.. وهذا اسم زوجى.. لا الكويت ولا السعودية ولا العراق ولا إنجلترا وإنما الذى قتل صبرى هو اليهود ومعهم الأمريكان.

بكى الجميع صبرى حتى إمام الجامع الشيخ عبدالواحد الذى استغل فرصة الصلاة على زوجى فى المسجد الكبير فى المقابر.. استغل الفرصة وصعد المنبر وسط بكاء الجميع وخطب عن أشياء كثيرة عن سورة فى القرآن هى سورة الإسراء وتحدث عن اليهود وعن ثأرنا معهم فى كل الحروب السابقة وتوعدهم.. وبدأت من هذه اللحظة أمقت اليهود لأننى بساطة كنت صغيرة جداً عندما انتهت حرب أكتوبر عام ثلاثة وسبعين لم أعِ شيئاً منها ولكنى الآن ناضجة بما فيه الكفاية لأعلم أن اليهود هم الذين اصطادوا صدام حسين أوغروا الصدور بين العرب وحشدوا الجيوش فى السعودية وأنهم هى الذين قتلوا زوجى ومن ذلك اليوم بدأت الحلم بالثأر.. هكذا أفهمنى الشيخ عبد الواحد ومعه الأستاذ فهمى.

من المهم الآن ذكر الآتى وهو ما جعلنى أفتخر بالحكومة

المصرية أن عضو مجلس الشعب الأستاذ بهجت الهلالى استطاع أن يطلق اسم زوجى على المسجد الكبير فى قلب المقابر تمجيداً له لأنه شهيد.

بعد الوفاة اجتمع الجميع فى البيت الكبير وقد كان الجميع فى ضيافة عم حامد الذى رفض بشدة أن أرجع إلى بيت أسرتى وقال أنها عاشت هنا.. أى أنا.. وهى وأولادها ستعيش هنا أيضاً حتى الموت.. يقصد موته هو بالطبع لأنه رجل طاعن فى السن.

ورضى لأنه رجل طاعن فى السن.

ورضخ الجميع لثورته خاصة أنه قد تعهد بالمصروفات كلها حتى لو اضطر أن يعمل فى الفاعل لينفق عليّ وعلى ولديّ الشهيد ابنه.

تفرق الجمع تحت إصرار عم حامد على كفالتى ولكنى بعد عدة أشهر اكتشفت أن هذا الحل مرهق جداً لعم حامد بل للأسرة كلها.

كان وصية زوجى تحرق هدوئى.. لابد أن يتعلم ولداى فى الجامعة.. وهما الآن على وشك الدخول إلى المرحلة الابتدائية والمال لا يكفى...

الكل مشغول بحياته حتى الأستاذ فهمى فهو أب لأربعة أبناء..

الحل واضح أن أعمل أنا.. أن أعول أسرتى وأتحرر من قيودى المالية..

كنت أعلم أن هذا أيضاً ليس بحل.. كان هدفى بعد تفكير هو أن أعمل عمل مؤقت حتى أفتح خان صغير جداً للبقالة والتجارة ومع الوقت سيكبر الخان وأوفر المال الذى أستعين به على الحياة وأربى ولداى ولكن ما هذا العمل؟ أنا لا أجيد شيئاً.. لم أتعلم.. لا أعرف القراءة لا أعرف الكتابة.. أنا لا أعرف إلا شغل من البيت من كنس وطبخ وتنظيف بعد تفكير عملى عميق قررت أن أدوس على كرامتى مؤقتاً لأعمل فى البيوت كـ.. خ..ا..د.م.ة نعم أقولها لكم فى خجل كخادمة وأنتم تعلمون الآن أننى لا أملك إلا هذا الحل لكى أعول نفسى وأسرتى وأصل بولداى إلى الجامعة.

كانت المعركة حامية فقد كان عليّ أن أقنع الجميع بالعمل وكخادمة لهذا فقد قررت أن أمهد للثانية بالأولى...

وفاتحت الأسرة فى البيتين فثارت ثورة عارمة ضدى ولكن بالتدريج وبإستمرارية الإصرار اقتنعوا...

أننى الآن أفسر ذلك بأنهم كانوا خاجلين من ذلك.. كانوا يخشون ألسنة الناس المعقربة ولكنهم كانوا تحت وطأة الفقر وفى

قرارة نفوسهم يجدون أن هذا هو الحل الوحيد.

وتركتهم شهراً كاملاً يحددون عملى ولكنهم فشلوا وقد تركتهم يفشلون..

وفى جلسة عائلية قذفت صاروخى.. وكلمة صاروخى هذه استعرتها من الحرب.. وقلت لهم أن العمل المناسب لى هو خادمة فى بيت شريف.. وكانت هذه الكلمة هى المفجرة لكل الثورات ضدى وبعد عدة أسابيع وبدعم من الأستاذ فهمى وافقت الأسرة ولكن عم حامد صمت ودخل إلى حجرته يصلى.. عم حامد ظل شهراً كاملاً صامتاً بعد أن وافق الجميع على عملى كخادمة.. بعد شهر كامل قرر عم حامد أن عملى لن يغير فى الأمر شيئاً فهو مازال مصراً على أن أعيش فى حجرتى بالبيت الكبير وأصر أيضاً أن راتبى الشهرى لن يُنفق منه قرش واحد على تربية الأولاد ولكنه سيدخر كله من أجل هذا الخان الذى سأديره فيما بعد.. لقد رضى عم حامد - أبو صبرى - عن الخطة وهى العمل المؤقت والادخار حتى الخان ولكن كان له شرط واحد ألا أعمل فى أى بيت من بيوت القرية وهذا على جثته.

ومن هنا بدأ البحث ومن هنا كان عم حامد يحدق فى صورة صبرى زوجى وقد اعتلى الجانب الأيمن منها شريط أسود علامة الوطأة.

وبالفعل عملت نصف عام فى بيتين من بيوت المركز، نفس المركز الذى كان يعمل به زوجى.. كانت المعوقات كثيرة بين الراتب القليل والمجهود الشاق إلى درجة تحميلى أكثر مما أطيق من عمل وكنت أنتهز فرصة وجود عمل جديد فأفر من بيت يرهقنى حتى جاء الأستاذ فهمى مساءً وقد تهلل وجهه فقد أوجد لى فرصة فى بيت عضو مجلس الشعب الأستاذ/ بهجت الهلالى. ذلك الرجل الطيب الذى كان السبب فى أن يطلق اسم زوجى صبرى على المسجد الكبير بالمقابر.. لم يكن هذا كل شىء فقد كان هناك عدة مميزات العمل مجرد ثمان ساعات فقط يومياً والمرتب مجزى والعمل ليس مرهق لأنه بيت رحمة وعدل...

كم كنت سعيدة بهذا العمل الجديد لشىء آخر أساسى فى حياتى هو أنه قد أتاح لى فرصة التعلم...

قلت لكم أن حلمى هو أن يدخل ولداى الجامعة ولكن حلمى المؤدى إلى الحلم الأول هو أن أتعلم.. التعليم كان حلمى الشخصى

الذى دفنه الفقر وشتته الحياة.. لابد أذن أن أحقق هذا الحلم وأن أقرأ جريدة الجمهورية كما كان يقرأها زوجى ثم أن هذا التعلم هو الذى سيمكننى من إدارة خان التجارة الذى أريد فتحه.. كان الأستاذ فهمى يقول دائماً فى جلساته التعليم كالماء والهواء. وكان جهلى هذا يعنى أننى ميتة رغم إننى أحيا.. لم يكن التعليم وحده هو حلمى الأول بل كان الصلاة أننى مازلت أحفظ عدد قليل جداً من قصار السور رغم أننى قد نسيت الكثير من الجزئين اللذين حفظتهما منذ صغرى فى كتاب الشيخ أحمد. قررت أن أكافح خجلى وأصارح الأستاذ فهمى بما أنويه خاصة أننى قررت أن يكون هو أستاذى..

تعجب الأستاذ فهمى أول الأمر ولكن أمام إصرارى وافق على أن يقوم بمهمة محو أميتى وتعليمى الصلاة.. أما عن الصلاة فقد تعلمتها فى يومين اثنين ومن ساعتها لم أترك صلاة واحدة حتى صلاة الفجر.. كنت أحياناً أصلى بالجامع مع السيدات وأحيانا كثيرة أصلى فى الدار أى البيت الكبير ومن هذه اللحظة شعرت بأن إحساساً من الثقة والطمأنينة قد غمرنى من هذه اللحظة توثقت ثقتى بالله

سبحانه وتعالى.

وبدأت العمل فى بيت الأستاذ بهجت الهلالى كان كل شىء جديد فى حياتى فى هذا البيت كان هناك نظام وتربية وأخلاق ورحمة خاصة من زوجة الأستاذ بهجت ومن ولديها أيضاً حتى أن ابنتها أهدتنى بعد أسبوع واحد من عملى بالبيت قطعة من قماش أخضر جميلة، كانت أجمل أرديتى على الإطلاق...

كان أيضاً هناك شيئاً جديداً هو أحاديث السياسة مع ضيوف الأستاذ بهجت فى صالونه الوثير...

ذكرتنى هذه الأحاديث الشديدة بتلك الأحاديث التى كانت تفيض حماسة أثناء حرب الخليج.. معذرة نسيت رقمها فأنا دائماً احتار بين الثانية والرابعة.. رقموها أنتم كما تشاءون.

كان الأستاذ بهجت ثائراً باستمرار وأظن أنه كان يدافع عن الحق.. عرفت ذلك من حماسه عن الحديث عن الحزب والمسقبل والمجلس الموقر والحرب والسلام والتنمية ولكنى كنت ألاحظ أنه كان يصمت تماماً عندما يرانى ولم أكن لأعلم عن سر ذلك شيئاً..

كان الأستاذ بهجت ودوداً جداً طيباً جداً وظريفاً جداً..

كان ينتهز الفرصة.. كل فرصة.. ليثنى عليّ ويدس بين يديّ الأموال الإضافية ثم يدعو لى ولولداى ويوصينى بأنه أذا اعترضنى أى شىء لابد من إعلامه لاتخاذ اللازم..

استمر العمل نصف عام كامل وأنا فى منتهى السعادة.. فى الصباح العمل وفى المساء التعلم وفى كل آذان صلاة.. وفى نهاية كل شهر أقبض الخمسمائة جنية فأدخرهم بالكامل مع عم حامد حتى يضمن ألا أنفق منهم شيئاً..

كانت نهاية كل شهر تعنى اجتماعى مع عم حامد والأستاذ فهمى فيجمعون لى الحساب ويعلمونى بالرصيد الإجمالى ثم نذهب إلى البنك بنك مصر فرع المعاملات الدينية هكذا كانوا يسمونه.. ويودعون فى دفتر باسمى المبلغ.. تهللت أسارير عم حامد عندما علم أننى على وشك القدرة على فتح الخان.. كانت حياتى تسير فى انتظام ونجاح حتى جاء ذلك اليوم.. كنت بمفردى فى بيت الخدمة وقد انهمكت فى المطبخ.. لم أدر بشىء حتى أحسست بيد ساخنة تربت على مؤخرتى.. التفت بشدة فكانت المفاجأة كان الأستاذ بهجت الهلالى بشحمه ولحمه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة

غريبة لم أر مثلها فى حياتى وقد لمعت بعينيه لمعة خيانة وغدر.. هتفت مذعورة (خير يا سيدي) لأول وهلة لم يتكلم بل أخذ يفتح أزرار قميصه الأسود فى هدوء وهو يقول (بل أنتى سيدتي)

- ماذا تقصد؟

- تعالى يا سعاد.. تعالى

- إلى أين؟

- إلى حجرة النوم.

هوت هذه الكلمة على رأسى كالصاعقة.. اكتشفت حقيقة هذا الموقف كان يريد أن يضاجعنى.. نعم أنا أرملة. وعودنى زوجى الشهيد على المضاجعة يومياً ونعم أنا أعانى الوحدة والرغبة ولكن شرفى ومن قبل شرفى الله والصلاة والجنة والنار فهل سأكون بعد كل هذا زانية؟!

أخذتنى المفاجأة فلم أتكلم.. سحبنى من يدى إلى خارج المطبخ.. لا أعرف من أين جاء بهذه الثقة الشديدة فى تجاوبنى معه.؟ قال وأسهب وأنا تدريجياً أستفيق وأقاوم.. سعاد هل تعلمين لماذا قبلت أن تعملى فى البيت هنا؟ لأنك أرملة.. أى أن السكة

سالكة لا بكارة ولا دياولو.. سعاد لقد راقبتك كثيراً وراقبت جسدك الأبيض البض الجميل تحت القماش المزركش.. كانت ساقيك تثيرانى إلى حد الجنون ونهداك أى صدرى أود أن أعتصرهما لاستخرج منها أجمل خمر فى الدنيا.. كنت أجن عندما أعلم أنك بالحمام تستحمين فأحسد الجدران أن رأتك عارية وأحسد الماء والصابون لأنهما يغطيان جسدك الناصع الرهيب لم تلاحظى لهفتى عليك طوال الشهور المنصرمة فكان لابد أن أخطط لنومى معك فى أقرب وقت.. اليوم زوجتى الكئيبة فى زيارة لأهلها بالقاهرة.. ولداى بالجامعة أى أننا أنا وأنت بمفردنا (هنا كان قد خلع القميص تماماً فبدى جسده المهول وقد كساه شعر رمادى كثيف)

سعاد.. هيا السرير يناديا.

عقدت المفاجأة لسانى ولكنى أدركت أن أفعل شيئاً لإنقاذ نفسى من هذا العار قلت بعار (يخيبك راجل)

ثم أردفت.. كنت أتوقع أنك رجل شريف عفيف طاهر ألست رجل سياسة.. قالوا لى ذلك.. وقالوا لى أيضاً أنك من تمثل الشعب.. الناس يتكلمون عنك كثيراً ولكنى كنت أدافع عنك لأننى لم أر منك

سوى الطيبة والأخلاق من الآن سأفضحك فى كل مكان لأنك منافق وحقير وكذاب ألا تخاف الله؟!

- سعاد.. دعك من كل هذا.. سأعطيك مالاً... كثيراً ولكن لا تحرمينى من متعة مضاجعتك الآن.. أريدك عارية.. عارية.. ولاحظى أن الوقت يمر وربما يعود أحد الابنين فتفسد المسألة.

هببت إلى أقرب حذاء من أحذية زوجته.. كان حذاءاً أسوداً له كعب بسيط وصرخت.

- لو اقتربت منى سأؤدبك بهذا الحذاء.

أخذته العزة بالإثم فزادت ثورته.

- أنت.. أنت أيتها الخادمة الحقيرة تضربينى بالحذاء؟! من أنت ؟! أنا أستطيع أن أمحيك أنت وأهلك وابنيك وأسرتك من على وجه الأرض.. ثم أنك لست أول من رضخ لى فى هذا البيت وخارجه. اسمعى جيداً سترضخين سترضخين هذا أمر منى.

- نعم أنا خادمة ولكنى شريفة.. نعم أنا بسيطة ليس لى منصب كبير ولا عضو مجلس شعب ولكنى لست سارقة أو منافقة أو حقيرة أو سارقة أعراض.

هجم عليّ الأستاذ بهجت ولكنى قاومت واعتلتيه بأن وثبت على الكرسى وظللت أطرق رأسه بالحذاء حتى بدأت قطرات الدم فى التفجر من جبهته.. كان يريد أن يقبلنى وأن يعبث بجسدى ولكنى لم أُنله منى قلامة الأظافر.. عندما أوسعته ضرباً هرعت إلى باب البيت.. بيت الخدمة وفتحته بعد طول مقاومة منه وهوى قوله لاهثاً:

- قبلة.. قبلة واحدة يا سعاد.

أخيراً فتحت الباب ولكنه لم ييأس فركض خلفى على الدرج لم أجد أمامى إلا فرصة واحدة لإيقاظه عند حده.. أخذت أدق كل الأجراس التى قابلتنى.. خرج الناس مذهولين من هذا الطرق المتواصل وعندما خرجوا وجدوا الأستاذ بهجت الهلالى نصف عارياً وقد تفجر الدم من جبهته.. تساءلوا فى دهشة عن حالته ولكنه تمتم (لا شىء.. لا شىء)

أما أنا فقد احتفظت بالحذاء ذى الكعب الدامى حتى بعدت عن البناية كلها.. أدركت أن الأستاذ بهجت سيتكتم الأمر كله لأنها فضيحة تمسه وتهدده حتى فى منصبه وقررت أيضاً أن أتكتم الأمر

خاصة أن ما معى من مال يكاد يكفى لفتح الخان.. سأستمر فى تعليمى وصلاتى وتربية أولادى حتى أرى الابن طبيباً والابنة محامية هكذا اختار عم حامد لهما.. أننى الآن أسير فى الطريق الزراعى من المركز إلى قريتى.. نعم أنا أبكى ولكن سعادتى لا توصف لأننى أخيراً سأتخلص من الخدمة فى البيوت وأستقر فى قريتى واتفرغ لإدارة الخان وتربية أولادى وليذهب بهجت الهلالى إلى الجحيم..

(٦)

وحيد

دارت عيناه فى أرجاء الحجرة الصغيرة تامة التجهيزات.. غرس الشمعة الأخيرة فى التورتة الكريمية المحلاة بالأناناس وهو يتمتم (هكذا يصبح العدد ثمانية وخمسين سنة) اليوم الثالث من أكتوبر من العام الألفين الميلادى يتم وحيد ثمانية وخمسين عاماً بالكمال والتمام.

أصر على أن يكون عدد الشموع بنفس عدد السنوات فهو يكره الرمز بأن يضع شمعة واحدة فى قلب التورت لترمز إلى العام المنصرم وهو يفخر أيضاً بعمره.

فى كل جلساته يقر بعمره ويمسح بيده المجعدة على رأسه النصف صلعاء والتى غالبها المشيب كأنه يدلل على عمره بما يجده الناس فى مفرقه.

كان يعتبر أن العمر يؤهله إلى أن يكون مسموع الكلم فهو يتكلم عن خبره حياتية طويلة مدعومة بكم هائل من الأعمال

والخبرات والأسفار والجولات وهذا ما جعله فى كثير من المناقشات يفخر بنفسه وبآرائه لأنه يصيب كبد الحقيقة.

هندم من الأثاث القليلة فى الغرفة وأخذ يستمتع بالهدوء أثناء انتظاره جاريه اللذين سيحتفلان معه بهذه الأمسية.

أدار عن طريق جهاز التحكم التلفاز فانطلقت إليه مشاهد الطبق.. عبث فى القنوات حتى وصل إلى فاصل موسيقى عبر عشرات البرامج... أغمض عينيه ليستمتع بالموسيقى الهادئة ولكنه استفاق على رنين المسرة.. أخذته الدهشة فهذا رنين دولى تساءل من سيطلبنى من خارج مصر الليلة؟!

أصمت الموسيقى بضاغط والتقط السماعة.. كان صديقه مدحت يهنئه بعيد ميلاده.. أذهله كيف تذكر مدحت هذه المناسبة.. ولكن بعد لحظات زالت دهشته فمدحت أعز صديق له عبر عشرين عاماً قضاها فى الخليج رغم اختلاف الشركات والمكاتب التى التحق للعمل بها...

لم تستمر المكالمة كثيراً ولكنها أيقظت فيه روح التذكر.. تذكر الخليج الدافئ بشمسه الدافق بنفطه الجاف بصحرائه العنيف بعواصفه.

ولكن رحى الذكريات لم تتوقف على هذه المرحلة من زهرة العمر من حياته بل دارت الذكريات إلى أعمق من ذلك بكثير.. فهو لا يعرف لماذا تفجرت بداخلة تلك الرغبة العارمة للتذكر.. حاول أن يطفئ جذوتها ولكنه فشل كانت الذكريات ترتوى من ذلك النبع الإنسانى لهذه الليلة. فالليلة عيد ميلاده.. الليلة تعلن أنه قد قضى فى هذه الحياة ثمانية وخمسين سنة بين الأحلام والأوهام والطموح والثراء والفقر والصبى والشباب والهرم.

أخذت شهوة التذكر تبعث أمام عينيه سنوات حياته الأولى فى بداية الأربعينيات.. قالوا له أن مولده كان عام اثنين وأربعين تلك السنة المهمة فى تاريخ مصر.. تذكر أسرته البسيطة.. أبوه الموظف الراتب القليل.. أخوه الوحيد الصغير.. أمه الحبيبة.. مدرسته..

مرقت عيناه على كل الأحداث حتى توقفت عند يوم نجاحه بالسنة النهائية بالجامعة كان يوماً فاصلاً فى حياته هو الذى حوله من شاب إلى رجل.. كان جميلاً هادراً.. كالثورة ولكنه كان يحمل فى داخله على رغم الانطلاق والسعادة أثر جرح عميق قرأ عنه كثيراً فى الصحف هذا الجرح انفصال مصر عن سوريا أو العكس.. ظل

سنوات طويلة يتساءل عن سر هذا الانفصال.. لقد خرجت مصر فتية بعد العدوان الثلاثى ذلك العدوان الذى درسه فى المدرسة ورآه وهو مازال صبيا على أرض الواقع.. لم يجد إجابة مقنعة لهذا الانفصال إلا عندما كبر.. ضحك الآن وهو يتذكر هذا الحزن هتف كم كانت لنا أحلام؟!

تذكر دعوات أمه لله ألا يذهب إلى اليمن بعد تجنيده.. كان كل علمها أن من يذهب إلى اليمن تذبحه القبائل دون ذنب وكان أبوه يردد دائماً (أن هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل) واستجاب الله إلى هذه الدعوات ومر تجنيده هادئاً فى عمل مكتبى لطيف..

استعد من بعد الجندية إلى تكوين أسرة مثل باقى الشباب ولكن كان عليه أن يعمل وبالفعل كان أول عمل التحق به فى سفاجا.. كان سعيداً بهذا العمل بل أخذ يدخر من أجل الزواج رغم أن راتبه كان قليلاً.. كم كانت سعادته عندما بدأ قلبه يخفق بالحب.. كانت الجارة الجديدة لهم بالشارع بيتها يبعد عن بيته بسبعة بيوت.. لمحها ذات مرة وهو عائد من سفاجا والجة إلى البيت ومن هذه اللحظة اشتعلت حياته وربما إلى الآن.. طويلة..

سوداء العينين.. شعرها الأسود الكثيف يصل إلى عمق ظهرها.. ناصعة.. ولكن الأهم من كل ذلك.. أنها كانت أنثى.. كان هذا هو ما لفت نظره بها.. إنه الآن يتذكر الشهر الإجازة الذى يعصف بسكينة القلب، ثم بتلك النشوة التى تروى حرمانه منها فى نفسه.. حتى هذه اللحظة يعترف أن هذه الأنوثة الجبارة.. التى كانت لديها القدرة على تحريك كل عواطفه وملكاته.. لم ير لها مثيلاً فى حياته.. لن ينسى القرار الفاصل فى حياته بأن يكلمها فى أمر حبه..

ظل يخطط نصف عام كامل حتى وصل إلى الشجاعة الكافية لذلك..

وبعد ألاعيب عديدة وصل إلى الانفراد بها بعد أن راقبها ساعتين..

اكتسحتها الدهشة وهو يربت على كتفها.. لن ينسى أجمل عينين بعد أن ظل يحلق بالقرب منهما ما يقارب من العام..

أخذته عيناها لحظات ولولا تداركه للأم لكانت ذهبت دون هذا اللقاء التاريخى فى حياته.. بعد دقائق من القلق والتردد صارحها بكل شىء ولكنها كانت حازمة معه قالت أنها لا تعرف الحب إلا فى بيت الزوجية حاول أن يحدد معها أوقات للقاء ولكنها أصرت على عدم اللقاء.. توسل إليها ولكنه لم يستطع أن ينال منها وعداً.

كل ما استطاع أن يناله منها هذه الوردة الحمراء التى مازال يحتفظ بها فى إحدى كتبه القديمة.. هذه الوردة أو بقاياها فى كتابه لازمته طوال حياته وحتى الآن.. إن هذا الحب ألهبه فألهمه العمل المتواصل.. وعدها أن يعمل ليل نهار حتى يفوز بها ووعدته هى أن تحترمه إلى أن يطرق بابها.. دفن وجهه بين كفيه وهو يتذكر ضربات ثلاث أتت متتابعة بعد ذلك..

حبيبته خُطبت وعندما عاتبها قالت له أنها لم تعده بشىء وأنها وافقت على خطيبها لأنها تحترمه فهو عصامى وشريف ومهندس.

وأنها تلتمس فيه الرجولة والقوة والحياة الكريمة... واسته بكلام جميل وذكرته أنها الآن فى عصمة رجل آخر لهذا فهى تعتذر عن استمرار هذا اللقاء الذى لم تسع إليه أكثر من ذلك.. تمنت له حياة سعيدة مع أخرى..

وتساءل فى حسرة أى أخرى تلك التى تملك أنوثتك وأى أخرى تلك التى تملك أخلاقك وشخصيتك.؟

وكانت الوردة هى رمز هذا الحب الكبير المفتقد تلك الورقة التى لم يستطع عمله الشاق المتواصل أن يُظفره بصاحبتها.. فقد

حبيبته فأدمن السجائر كأنه يريد الانتحار..

وعندما شاهدها مع خطيبها أصبحت سفاجا وطنه والقاهرة موطن بعيد عنه لا يأتيها إلا نادراً.

ثم أتته الضربة الثانية.. كانت النكسة المريعة.. كانت الإنكسار التى لم يقم بعدها أبداً كما كان..

فى هذه اللحظة لم يرد ان يمعن فى تذكر هذه النكسة لأنها تبكيه بعنف كلما تذكرها وكم تذكرها وهو على ضفاف الخليج وفى عمق الفيافى. ما يتذكره الآن جيداً أنه بدأ إدمانه للخمر بعد هذه النكسة حتى ينسى مشهداً واحداً فقط من مشاهدها وهو أن الجنود المصريين الذين انسحبوا من سيناء قابلهم وهو فى طريقه من سفاجا إلى القاهرة.. قابلهم شبه عرايا يأكلون البطيخ من شدة عطشهم.. كانت وجوههم تحمل أسئلة كثيرة ولكنها.. الوجوه.. كانت البرهان المادى الرياضى على أن شيئاً ما جسيماً كان خطأً فى حياة مصر.

تذكر كيف ابتلعه العمل والسجائر والخمر فى سفاجا إلى أن جاءت الحادثة الكبرى الثالثة.. تلك الحادثة التى لم يكن أحد

يتصورها فى ذلك الوقت.. تلك الحادثة التى جعلته يترك عمله دون حتى استئذان ويركب أول سيارة دون انتظار ركاب ليصل إلى القاهرة.. كانت الطريق من سفاجا إلى القاهرة كالأطلال مهما احتوت من أشجار ومبانى حتى الصحراء كانت أطلالاً وقد صاحب هذه الأطلال على طريق السفر الطويل بكاء مر ينزف التاريخ والطموح والثورة.. كانت الحادثة هى وفاة عبد الناصر.. لم يصدق فى بداية الأمر أن عبد الناصر قد مات وكيف يموت فى هذه اللحظة الفاصلة من تاريخ مصر؟! كيف يارب يموت واليهود على بعد مائة كيلو من القاهرة وسيناء محتلة؟! كيف يارب يموت الأمل بعد أن بنينا حائط الصواريخ ونستعد للمعركة تلك المعركة التى لن نكتفى فيها هذه المرة بسيناء بل بالنقب وتل أبيب وغزة والقدس؟! كان يبكى وهو يقول لماذا يارب لماذا يارب؟ عاد إلى القاهرة ليلقى نظرة على الجثمان الذى انهكته الرحلة الطويلة التى بدأها من حرب فلسطين (هكذا قال) عاد إلى القاهرة ليودع الرمز الخالد والثورة والشباب والطموح والأمل والحب الذى كان يهرب إليه من حبه المفقود.. فى هذه اللحظة دون أن يدرى وهو فى الثانى من أكتوبر من

العام الألفين الميلادى وفى ليلة ميلاده أخذ يبكى عبد الناصر بحرقة.. كان يهرب من ذكرياته لأنه لا يريد أن يحزن فى هذه اللحظات من ليلة، فكافح مع ذكريات حبه المفقود ذى والوردة المطلولة بدموعه وكافح دموعه مع ذكريات النكسة ولكنه لم يستطع أن يحجب هذه الدموع عندما تذكر كيف انصهر مع الجماهير يودعون الجثمان وكيف بقى حتى بعد الدفن ساعات طويلة فى الشارع وقد هام دون اتجاه.. كانت الحقيقة التى اعتصرته فى تلك اللحظة أن الأمل قد مات وأن مصر قد انتهت.

عاد إلى بيته فى هذه الليلة الرهيبة وقد جاهد إزورار عينه إلى بيتها.. كان الضوء منبعثاً من خلق الشباك الموصد وقد استمع ملياً فتهادى إلى مسامعه القرآن.. إنه أوان القرآن هكذا قال: فالمأتم كبير. ها هو لينسى كل هذا.. جاهد لينسى حبيبته ولكنه لم يكن معه المال ليرتبط بأخرى تنسيه إياها أو أنه لم يعد عازماً على أن ينساها فكان ينفق المال على الخمر وسهرات النساء والأصدقاء والصديقات ولكنه لم ينس.. لم ينس الحب الأنثوى الجبار الذى كان محركه مع كل النساء ولم ينس مشهد الجنود المنسحبين ولم ينس تلك الجنازة

وهذا الجثمان.. تذكر أن ذلك الحزن العميق الذى اكتسحه لم يخف إلا من أمران أولهما كان حرب أكتوبر العظيم التى قادها وانتصر بها الجيش المصرى الباسل وثانيهما أن قد ترك مصر إلى الخليج بعد تغير الظروف الاقتصادية والسياسية للعرب بعد الحرب.. كل ما يتذكره الآن سؤالين أولهما كيف لم ينس حبيبته رغم طول السنين وكيف انهزم العرب بعد العبور ولم ينهزموا بعد النكسة؟!

كان يتابع أخبار الوطن رغم بعد المسافات مذهولاً متسائلاً هل المصريون فى مصر هم هم نفس المصريين طوال هذه القرون السالفة ؟ ووجد ضالته فى الخمر والنساء والسجائر التى كان يود الانتحار بها تعارك طوال العشرين عاماً مع كل أصحاب العمل فى الخليج وهو يعترف الآن أن كل هذه المعارك كانت لأتفه الأسباب ولكن فشله فى البحث عن المرأة التى تسعده وحزنه العميق للانكسار أمام العدو وذكريات حبه الرهيب بوردته الحمراء كانت كلها تضغط على أعصابه فلا يحسن الردود وإن أحسنها لا يلقى الردود التى ترضيه.. كان سفره إلى الخليج فرصة ليحقق حلماً كبيراً لديه وهو أن يرى العالم.. لقد درس كثيراً عن الثورة الفرنسية وكم

تمنى أن يسير فى طرقات باريس القديمة وأن يستنشق عبق التاريخ تماماً عندما كان يستنشقه فى حارات مصر وشارع كوبرى القبة ومنشية البكرى ومصر القديمة أثناء أجازاته فى الصيف.. كان ينتهز حلول الصيف وأجازات الأعياد ويكر على أوربا.

ومضت السنون فتساءل ماذا بقى لى بعد عشرين عاماً فى الخليج؟ وأكثر من ثلاثين عاماً فى مصر؟! الذكريات الوحدة.. الحب المفقود.. الوردة الحمراء.. الثورة المقتولة.. النكسة.. الجنازة الماثلة.. الحرب.. الانتكاسة.. الركوع.. السلام؟! تساءل عن حصاده منذ العام الرهيب اثنين وأربعين؟! فلم يجد إلا كلمة واحدة.. صرخ (أنا الهامش) (لقد عشت الحياة بكل الأشكال ولكنى أشعر فى أعماقى أننى ما أنا إلا هامش كبير.. أين أنا وأين حياتى وأين طموحى وأين مالى هل بعد كل هذه السنوات أعيش فى نفس البيت الذى أجرته بعد ثلاثة أعوام لى بالخليج.. ذلك المنزل الذى أعيش فيه الآن بعد غربة طويلة.. ذلك البيت المنزوى فوق أحد أسطح المنازل القديمة فى إحدى حارات مصر القديمة.؟

البيت المكون من حجرتين ضيقتين للنوم والاستقبال وحمام

كعلبة سردين ومطبخ كقبر.. البيت الذى عزلنى خمس سنوات عن العالم اللهم إلا من هذا الطبق الذى يلتقط موجات كهرومغناطيسية ليحولها إليّ فى هيئة قنوات فضائية.

- هل هذا الانعزال هو كل عالمى الآن؟!

ندم على تذكره.. كان يعلم أنه ما أن يتذكر حتى ستلتهمه الذكريات وتحيله إلى هذا الحطام أو الهامش الذى تحدث عنه لهذا كان يقاوم التذكر أو يقاوم الطريق إلى وعى الحياة التى يعيشها الآن.. فبعد ثلاثة وخمسين عاماً من الحياة يعود إلى مصر محملاً بثلاثة وثلاثين عاماً ثورية وعشرين عاماً خليجية وعشرات الأسفار ومئات الرحلات الجوية ومئات الألوف من الجنيهات التى طار ثلاثة أرباعها فى النسيان واللهو وبقى من كل ذلك ومنذ عام خمسة وتسعين بعض المال الذى يقتات على فوائده البنكية وهذه العزلة وهذا الطبق وهذه الزيارات من أصدقاء على مختلف الأنواع والأشكال وبعض المكالمات التى تثير فيه الذكريات وتذكره ببعض الحياة بعد أن قرر أن يتحول إلى مومياء فوق سطح لا تزال تتنفس.. ساعتها أفرغ رغماً عنه.. بعضاً من الخمر فى كأس طويلة

وتجرعها كلها مرة واحدة كأنه لا يريد أن يسكر فى هذه اللحظة التى لملمت أشتات حياته ولكنه لم يستطع.. غلبته شهوة النسيان فازدرد الخمر مسح شدقية المطلوليين بالدموع، أحكم غلق زجاجة الويسكى.. أشعل سيجارة من سجائره الحمراء الأجنبية وحاول جاهداً أن يجمع أشتات قوته.. كان يريد أن يعود إلى بعض قوته حتى يستطيع أنى يستقبل ضيفيه فى هذه الليلة الغريبة.. استمع إلى الموسيقى وتعجب فقد كان كل هذا التداعى لذكرياته فى خلال دقائق معدودة فهتف كم هو العمر قصير؟!

بعد لحظات بدأت الموسيقى تتخلله فبدأت الراحة تسرى فى أوصاله بعد ربع ساعة سمع طرقات على الباب الخشبى المتوسط الطول فقام ملبياً الطارق.. تعالت الضحكات من الجميع وهم يدخلون حاملين بعض الهدايا التذكارية الرمزية.. كانوا ثلاثة رغم أنه توقع إثنين فقط (ماهر) فى العقد الثالث من عمره وخالد فى العقد الرابع.. فى لحظة قدم ماهر صديقه إلى وحيد وكان الصديق الصغير هو وائل فى نهاية العقد الثانى من عمره.. يحمل فى يده المحمول يرتدى قميصاً متداخل صاخب زاهى الألوان وسروال

جينز أسود.. جلسوا جميعاً بعد التعارف الصغير وتبادل التهانى.. لأول وهلة شعر وحيد بحنين لوائل كأنه ولده.. فلو أن وحيد تزوج لكان أنجب من هو فى سن وائل أو أكبر فأحاطه بعنايته واهتمامه.. تساءل خالد عن هذا الكم الكبير من الشموع فأجابه وحيد بأن عمر الانسان هو حصيلة التجارب فلا يجب أن تخفيه أو نتبرأ منه.. أشعل وحيد الشموع بعدة أعواد ثقاب وعلى خلفية الموسيقى أطفأوا الشموع مغنيين سنة حلوة يا جميل. تبرع وائل بتقطيع التورت بسكين حاد على المنضدة الصغيرة.. وزع ماهر أجزاء التورت على الحاضرين.. كانت اللحظة لحظة انتصاف الليل فكان هذا إيذاناً بيوم جديد وعلى الفور دقت الساعة لتعلن ذلك وغابت الموسيقى وجاءت نشرة الأخبار.. أنصت وحيد باهتمام وتتابعت الأخبار تصف خبراً واحداً من عدة اتجاهات.. كان الخبر هو الانتفاضة الشعبية فى فلسطين إثر زيارة شارون زعيم الليكود الإسرائيلى إلى المسجد الأقصى:

- وائل: ما أجمل هذه المذيعة.. لها شفتان نهمتان

- ماهر: الفلسطينيون يموتون بلا نتيجة.

- خالد: هذا ما كنا ننتظره منذ زمن طويل.. عودة الانتفاضة.

وكأن هذا الحوار قد فتح أبواب الجحيم فأكمل وحيد

- الدكتور بشار غادر مصر اليوم

وائل: فى أى تخصص؟ وحيد/ دكتور بشار رئيس جمهورية سوريا

وائل: والله؟

ماهر: الدكتور بشار دكتور رمد

خالد: الأمة العربية فقدت بوفاة حافظ الأسد زعيماً كبيراً.

وحيد: الأصل أن عبد الناصر قد مات.

مرت لحظة صمت حتى ألقى وائل بقنبلة.

- ألازلت تذكر عبد الناصر؟

مرت لحظات قبل أن يستوعب وحيد الكلمات فقد تعود منذ فترة طويلة على الهجوم على عبد الناصر ولكنه لم يسمع هذا القول من قبل.

ضحك ماهر ووجم خالد فأكمل وائل.

- إن عبد الناصر هو الذى هزمنا فى سبعة وستين.

كانت السجائر قد اشتعلت والخمر قد دارت بين الشفاة فعقد

الدخان سحابته فوق الرءوس.. ابتسم وحيد فى وهن وقال

- لم ينهزم عبد الناصر فى سبعة وستين بل انهزمنا جميعاً بعد العبور.

ماهر: ماذا تقولون؟ السياسية كلام فارغ لا فائدة منها..

انهزمنا.. عبرنا.. ركعنا.. لقد انتهت هذه المسائل والسلام.

خالد: لم ينته شىء.. سيعود العرب يوماً إلى العالم.

وائل: ممكن يا أستاذ وحيد تغير هذه القناة التعيسة وتحولنا إلى قناة الأغانى.

ماهر: ابحث لنا عن رقص خاصة الرقص البلدى.

وبالفعل أخذ وحيد يبحث عن طريق جهاز التحكم عن رقص شرقى قائلاً:

لن أحزنكم فى هذه الليلة.

لم يجد وحيد رقصاً ولكنه وجد أغنية

وائل: ثبت هذه الأغنية..أنها رائعة

كان وحيد يعلم هذه الأغنية جيداً فهى رديئة مثل أغانى كثيرة مثلها وكان يعلم أن كل ما بها هو هذه الرقصات الغريبة والراقصات العاريات.

وائل: أنها مصورة فى أمريكا.. ثم انكب يملأ الكؤوس.

خالد: أرأيتم السيقان الأمريكية؟

ماهر: لا أعلم لماذا حباهم الله بالأنوثة وحبانا بالغفر؟

وحيد: أنت لم تر جمال الخليج.

وائل: إنه جمال بدوى متوحش رأيته فى فنادق القاهرة.

وحيد: أنا لا أقصد الجمال البدوى أنا أقصد جمال الحضر العربى.

خالد: إن هذا الجمال هو الذى سيوحد العرب.

وائل وقد أخذ يشرب ويميل مع الأغنية. الجنس هو الذى يستطيع أن يوحد العرب.. ممارسة الجنس كفيلة بأن توحد الرجال والنساء فى الضوء الأحمر.

وائل: ولكن العالم العربى ليس كسائر العالم.. إن العالم العربى كالمتوسطيين ساخنون جنسياً.. لقد جربت النوم مع غربية ولكنها كانت باردة وشاذة أيضاً.

خالد: بصفتك سافرت إلى بلاد كثيرة من العالم يا أستاذ وحيد أين النساء أجمل؟

وحيد: الأنوثة هنا يا عزيزى.

لم يعجب هذا الكلام وائل فقال على الفور.

أمريكا هى الأنوثة هل رأيت فيلم تايتانيك؟

- وحيد: لا..

ماهر: ما هو أجمل جزء فى المرأة يا جماعة؟

واكتسحتهم الضحكات فرد وائل وهو يزدرد آخر رشفة من كأسه:

كل جزء تستطيع أن تنكح المرأة منه هو أجمل جزء

خالد: المرأة هى أقدر من تفسر التاريخ لأنها الجنس يمشى على الأرض.

وهنا انتهت الأغنية لتعود المذيعة تذكر بأن هذا الموعد موعد الأخبار.. وبصيغة أخرى جاءت نفس الأخبار هى هى فانطلق ماهر ساخطاً: يادى القدس اللى بيتكلموا عنها)؟ وضغط جهاز التحكم فأشرقت قناة جديدة بأغنية جديدة..

ولاحقه وائل: قدس أيه وكلام فارغ أية (يعطوها لليهود ويخلصوا نفسهم).

خالد: إن كلامك خيانة كبيرة.

لم يطق وحيد كل هذا الكلام فهذه هى القدس التى طالما

عاش أحلى سنوات عمره حالما بتحريرها: وائل.. القدس هى قضيتنا العظمى وكما جاء صلاح الدين وحررها من أيدى الصليبيين وكما جاء عبدالناصر ليحررها فلسوف نحررها نحن فى يوم من الأيام.

ابتسم وائل ابتسامة الدهشة وقال: إسرائيل تريد القدس ونحن نملك آلاف الكيلومترات فى الوطن العربى فهل القدس هى التى تغير مصير العرب رغم كل المدن العربية؟!

خالد: القدس عربية وستظل عربية

ماهر: القدس ذهبت كهذه السيجارة ولكنكم لا تريدون الاعتراف بذلك.. أمريكا وإسرائيل سيدتا العالم وقد انتهى العرب.

وحيد: نحن لم ننتهِ.. الأمر كله أننا نمر بلحظات ضعف وكل الأمم تمر بلحظات ضعف.

وائل: نحن لا نملك السلاح المتطور الذى نحارب؟

وحيد: الاتحاد السوفيتى انهار وكان يملك السلاح النووى.

ماهر: ولكن أمريكا لن تنهار.

وائل: أمريكا هى الحرية.. هى الأمل.. هى الدولار.. العالم كله بما فيهم أنا يتمنى الحياة فى أمريكا.. أنت نفسك يا أستاذ وحيد ألم

تذهب إلى أمريكا؟

وحيد: البلد الذى لن أذهب إليه هى أمريكا.

خالد: أمريكا عدوة الأمة العربية وسيجيئ يوم ونصفى حساباتنا معها.

ماهر: أنت تحلم.

وحيد: هذه قضيتنا.

وائل: قضيتنا هى الرغيف.

ماهر: ليست هى الرغيف فقط.. هى المسكن الذى لا أجده.. هى العمل ذو المرتب المحترم بدلاً من العمل الحقير الذى أعمله الآن بقروش.. قضيتنا هى المال.

خالد: قضيتنا هى توحيد الأمة العربية.. هى القدس.. هى رفع الحصار عن العراق.

وائل: كيف؟!

كان السؤال مفاجئاً.. لم تستطع لأول وهلة.. حنكة وحيد ولا ثورية خالد الرد عليه بعد لحظات جاء صوت وحيد: منذ قرار التقسيم رقم ١٨١ عن الأمم المتحدة ونحن نحارب من أجل قضية

فلسطين.. إن أمتنا لها هذه القضية بمثابة الروح وكل أمة لها قضيتها.. أنت تريد أن تنزع منا روحنا.

وائل: أنتم الذين تعيشون على الوهم.. نحن متخلفون أميون فاشلون.

ماهر: قضيتنا هى الاقتصاد المتداعى.

وحيد: ومن يقف بجانب العراق؟

خالد: لقد مات أكثر من مليون ونصف المليون عراقى والعرب صامتون.

ماهر: لقد وقع صدام فى المصيدة وعليهم جميعاً أن يتحملوا نتيجة خنوعهم.

وحيد: هكذا يضيع العراق والعرب.

وائل: لقد سمعت أن صدام استنسخ نسخاً منه.

وحيد: كفاكم افتراءً

ماهر: هل سمعتم عن الجينوم البشرى؟

وائل: لقد أعلناه كلينتون وبلير.

وحيد: إنها كارثة أن تقع الخريطة الجنينة فى أيادى المجرمين.

خالد: أنهم سيتحكمون فى مصير البشر.

وائل: أستاذ وحيد لقد سافرت كما قلت لى إلى كل العالم أو معظمه وها هم يصلون إلى الخريطة الجينية للإنسان فقل لى كم عام بيننا وبينهم؟

ورد وحيد فى حسرة: كثير.

قالها وقد تداعت إليه فى لحظة تذكارات أسفاره إلى أوربا طاف خياله بكل الشوارع التى مر بها وبالمعاملات التى تعامل بها أدرك وهو يقول(كثير) أن ثمة بونا شاسعاً بين حضارة الغرب وما عليه الشرق...

وائل: أنا لا أعلم إلا هذه الكلمة (كثير) لا أعلم عن القرار ١٨١ هذا أى شىء ولا أعلم عن إسرائيل شيئاً ولا أعرف عن القدس شيئاً... كل ما أعرفه أن الفارق بيننا وبينهم ما بين السماء والأرض.

ماهر: والفضاء..

وقبل أن يستطرد ماهر عن الفضاء طارده وحيد: (لا فضاء ولا دياولو).. شرع يملأ الكؤوس فرجعوا إلى ضحكهم ولهوهم.

- وائل: سمعت أن الملك فاروق كان ضعيف جنسياً هل هذا صحيح يا جماعة؟

خالد: وهل هذا يقلقك؟

ماهر: ألم يكن حاكم مصر فى يوم من الأيام؟ تهمنا سمعته.

وحيد: كان نسونجى.

وائل: ليت فارق يعود يوماً.

وهنا خرجت المذيعة لتعلن أنه موعد الأخبار.. أراد وحيد أن يهرب من كل هذه الأحاديث فضغط على جهاز التحكم قبل أن تبدأ الأخبار وسرعان ما استقرت يده على لقطة ساخنة فى فيلم عاطفى عربى.

وائل: أين هذه القبلات من بداية الجلسة؟

خالد: إنها أعمق قبلة شاهدتها فى حياتى.

ماهر: هل هذه الممثلة الآنسة التى تجيد القبلات عذراء؟

وائل: سؤال غريب.

وحيد: أنا لا أعرف مغزى سؤالك

شعر ماهر أن سؤاله بلا معنى فآثر الصمت.

خالد: الليلة على القناة وذكر اسم القناة حفلة رقص شرقى رائعة.

وحيد: نعم وسترقص بها الراقصة الشهيرة.. وفى لمح البصر أدار القنوات ليصل إليها.. ووصل إليها.

وائل: هكذا تحلو الليلة.

ماهر: هذه الراقصة قادرة على تجميع العرب.. أتحدى أن ملايين العرب تترقب هذه الليلة بفارغ الصبر لتتمتع بهذا الجسد الشهى وهو يتراقص مع أنغام الموسيقى.

وائل: إن صدرها مثير جداً هذه الليلة.

خالد: رغم سنها إلا أنها لا تزال مثيرة

وحيد: ليس صدرها فقط هو المثير..

وضع ماهر مكعبات الثلج بالكؤوس بينما صب وائل الخمر بها وقال: هذه هى ثورة الثورات (موش تقولى قدس)

ابتلع وحيد الكلمات دون تعليق فهو لم يعد يجد ما يقوله أمام هذا الطوفان الذى لم يستطع أن يسميه فهل هو طوفان واقعية أم انهزامية أم خيانة أم عبثية أم ماذا.. كل ما انتواه أن يكف عن التفكير ويندمج مع الراقصة الشهيرة فى هذه الليلة فهى تذكره بأيام أنسه مع صديقاته وأصدقائه فى الخليج وليالى القاهرة بالصيف وبأروبا فى رحلاته.. كل ما كان يحاول أن ينساه هى فكرة أن هذه الراقصة قد استطاعت أن تجمع حولها الملايين من العرب وعبر أقطار مختلفة دون أن يكون لها فلسفة ثورية أو قومية عربية أو خلافه إسلامية. فقط كل ما كانت تملكه هو قدرتها على

إثارة الرجال حتى النشوة.. بعد ساعتين وقد بدى والسكر قد نال منهم والرقص قد أرهقهم والسجائر وقد حرّقت صدورهم لفحهم هواء بارد من موجات أكتوبر المنذرة بالشتاء فسعلوا وغابوا فى أعماق الدرج بينما كان محمول وائل يرن فى قلب الصمت عاد وحيد مخموراً ولكنه لم يستطع نسيان الليلة بكل ما فيها منذ حديث التليفون مع صديقه مدحت وتدفق الذكريات والأحاديث الغريبة مع الأصدقاء حتى الراقصة التى انخلعت لها قلوبهم.. وجد نفسه مندفعاً إلى الحجرة الثانية والوحيدة فى البيت.. فتح فاه الدولاب وأخرج الكتاب القديم.. عبثت يده فى أوراقه حتى وصلت إلى الوردة الحمراء المحطمة بخطوب السنين.. حدق بها وبكى.. بكى كما لم يبكِ منذ سنوات.. بكى وهو يعلم لماذا يبكى.. ولكنه أخفى فى صدره مجرد التفكير فى هذه اللماذا.. مازال ينظر وحيد إلى الوردة.. ومازال يبكى.

الساعة

ستكون مفاجأة جميلة.. هكذا هتفت.. مرقت بين شوارع قلب القاهرة.. عدلى.. عبد الخالق ثروت.. طلعت حرب.. حتى وصلت إلى ميدان أنور السادات.. فى الميدان الواسع أخذت تمنى نفسها بقرب الوصول فلم يعد أمامها إلا إجتياز الميدان الواسع لتصل إلى شارع القصر العينى حيث شقة حبيبها.. اليوم عيد ميلاده وقد اسأذنت من عملها مكتب الترجمة لتشترى له هدية عيد ميلاده.. بعد مجهود شاق إختارت عدة شرائط لأغانى يطلقون عليها أغانى شبابية.. ظلت تختار من المعروض ساعة كاملة.. كانت تود اختيار مطربين واغنيات تعبر عن حبها العميق له وكيف لا وقد مضى على حبها له ست سنوات كاملة تخللتها أحداث عميقة فى حياتها من دراسة للثانوية العامة ودخولها الجامعة وعملها فى مكتب الترجمة..

تعلم أنها لن تجده الحين فهو بالتأكيد فى عمله بشركة السياحة ولن يعود إلا بعد حوالى ثلاث ساعات تكون قد هندمت حجرة النوم وشاهدت فيلماً من أفلام الفيديو التى تكتظ بهم مكتبة الشرائط فى حجرة النوم.

لن تجد صعوبة فى الولوج إلى البيت فهى الوحيدة التى استأمنها على مفتاح البيت لفرط حبه لها وحبها له ذلك الحب الذى لن ينتهى بالزواج لسبب قاله لها ولم تقبله ولكنها لا تملك من أمره شيئاً.. ها هو البيت الواسع العتيق يلوح لها رغم زحام شارع القصر العينى.. صعدت الدرج فى هدوء حتى لا تثير الجيران الذين لا قت منهم نظرات الاستهجان لأنها تلتقى به فى بيت يمكثان لساعات بمفردهما.. كانت نظراتهم تقول أن هذا الفعل الغريب خطأ وأنهم يتوقعون ما يحدث بينهما ولكنها كانت ترد على كل هذه النظرات بالإهمال فهى حرة وهو حبها وهما حران.

عالجت قفل الباب بالمفتاح.. ولجت فى هدوء.. وضعت متعلقاتها وهديتها على المنضدة التى تتوسط الصالة الواسعة.. أغلقت الباب.. لأول وهلة لفها السكون فهذه البيوت العتيقة تمتاز

أنها قادرة على عزل قاطنيها حتى وإن كانت فى قلب الضوضاء.. كانت الصالة الواسعة تصل إلى أجزاء البيت العتيق ذلك البيت الذى احتفظ بكل تفاصيله حتى بعد وفاة ابويه ولما كان وحيداً وفقيراً فقد بقى الحال كما هو عليه ولكن الشىء الوحيد الذى بقى دون مساس هو حجرة نوم أبويه حتى أنه لم يدخلها بعد وفاة أمه...

حجرة نومه المهملة دائماً كانت فى مواجهة الوالج من باب البيت الرئيسى مباشرة وكان طلاؤها الأحمر الداكن يبدو واضحاً من خلف باباه..

النصف زجاجى.. جلست على أحد مقاعد الصالة لتستريح قليلاً وبعد برهات سمعت صوتاً غريباً يأتيها من خلف باب حجرة النوم.

لأول وهلة لم تتعرف على ما هية الأصوات ولكن بالتدريج أدركت كل شىء.. كان صوت لقاء جنسى ساخن خلف الباب النصف زجاجى...

جن جنونها ولكنها كانت تكظم هذا الحنق المجنون فهى تعلم أنها ليست الفتاة الوحيدة فى حياته وأن علاقتها العاطفية والتى

اعترف بها بل خصها بها هى مجرد علاقة خاصة بينهما تضفى على العلاقة الجنسية بينهما مذاقاً خاصاً بل أن هذه العاطفة المتأججة بينهما هى التى جعلته يحافظ عليها عذراء كدليل منه أنه لا يريد أن يحولها إلى امرأة كما فعل مع عشرات الفتيات. تلك الفتيات اللائى يهوين إلى حبه بعد أن يصطادهم فى سن السادسة عشرة فهذا السن.. فى رأيه.. هو السن المناسب لاصطياد المرأة والاستمتاع بها فى مرحلة التوهج والجنون الجنسى والعاطفى وهى المرحلة التى لن تتكرر فى أى وقت قادم فى حياتها.

ياسر هذا هو اسمه كان فيلسوفاً كبيراً فى عالم المرأة يفهمها من أول نظرة ويؤثر بها من أول كلمة وقد ساعده على ذلك وسامته الشديدة وجسده المتناسق القوى البينان.. تذكرت الآن معاركها العديدة معه لهذه العلاقات الجنسية المتعددة فى حياته مع فتيات وأرملات ومطلقات على كل الأشكال والأنواع بل والجنسيات.. تذكرت وقد سحقها الألم لأنها كانت تريد أن تحتويه وهى فى يوم عيد ميلاده.. كانت تريد أن تكون هى الوحيدة فى هذا اليوم الخاص بجانبه هذا بجانب الغيرة النسائية المعروفة التى ورثتها عن أمها

وكانت سبباً قوياً فى الشقاق بينها وبين أبيها كانت تريد الانفراد بالطاووس.. وهكذا كانت تسميه فى قرارة نفسها.. فى هذه الليلة وتمتعه بجسدها الفتان لتشعر أنه وعلى الرغم من كل علاقاته حتى مع بعض جاراته هى الوحيدة التى تعطيه المتعة القصوى. رغم أنها عذراء ألا أنها تتفنن فى ممارسة الجنس وتطيعه فى كل رغباته التى تصل إلى حد الأوامر فى حياتها بل إنها تحاول أن تنفذ الحركات الجنسية والأوضاع المتعية فى الفيلم الجنسى الذى عادة ما يحتاره من مكتبة الأفلام الجنسية فى حجرة نومه ويشاهدانه فى العملية الجنسية التى تبذل فيها كل جهدها لتنول رضاه ومن ثم تمتعه

تهادى إلى سمعها أيضاً أصوات موسيقى الفيلم الذى عشقاه معاً لأنه كان يثيرهما أكثر من غيره.. تعلم جيداً..كل تفاصيله بل تحفظ موسيقاه التصويرية..سحقها الألم فهذا الفيلم خاصة يكاد يكون تذكار بينهما هما فقط.. إن الأمر أذن ليس احدى رفيقاته وإنما امرأة قد أخذت مكانا هاماً فى حياته وقد غذّى هذا الشعور المؤلم تلك الضحكات وهذا الانسجام الرهيب الذى يدل على عاطفة ورغبة حارقة..وكل هذا فى هذا الوقت الذى من المفروض أن يكون

به بعمله أى أنه موعد خاصاً جداً لا يريد أن يعرف به أحد.,. وكل هذا أيضاً فى يوم عيد ميلاده الذى وعدها منذ أسبوعين أنها هى الوحيدة التى ستكون به فى هذه الحجرة..

كادت تخرج من البيت بعد أن تترك رسالة تسبه به بأغلظ الألفاظ ولكنها لم تستطع فقد كان هناك فكرة تستولى عليها وهى أنها لابد أن تفسد هذا اللقاء وتقتل هذه المتعة وتعرف من هذه المرأة التى اختصها دونها بهذا التوقيت وهذا اليوم..

أشعلت سيجارة وقد حرّق قلبها تعالى الضحكات ومعه أنين المهد الذى تعرفه تماماً فتعرف من أنينه ماذا يحدث على سطحه.

بعد أن أنهت تدخين السيجارة كانت قد قررت أن تهدم المعبد على من فيه..

قررت أن تقتحم الغرفة الفسيحة الحمراء وتوقف الفيديو الفائر وتنهى هذا اللقاء الرهيب.. وتتهمه بأنه خائن وحانث بالوعد وتنتهز الفرصة لترى مفاتن تلك المرأة وتقارنها بنفسها خاصة أنها ستكون فى تلك اللحظة بلا رداء.. استجمعت قواها.. أطلقت زفرة حادة.. سارت فى خطوات ثابتة حانقة أدارت مقبض الباب فى قوة

وسرعة وكأنها تفاجئهما توقفت الانفاس اللاهثة ومعها الضحكات والأنات ومعهم أنين المهد سحقت ضاغط الفيديو بضربة واحدة فخرس ثم طوحت يمناها فى ثورة إلى ضاغط المصباح الكبير بجانب اطار الباب لأن الضوء غير كافى للتعرف على تفاصيلهما استغرق هذا الاقتحام أربع ثوانى ولكنه كان كفيلاً أن يبدد أمن المتلاقين وأن يحول هذه المتعة إلى ذعر والحضن إلى فرقة والنظرة اللاهية إلى أخرى مترقبة فزعة وكانت كافية أن يفترق الجسدان فى حركة تلقائية قبل اكتمال المتعة ونضوجها فى الذروة بعد التحام ساخن.. بعد أن أضاء المصباح الحجرة الحمراء كانت تستعد للصراخ والثورة ولكن شىء من ذلك لم يحدث فقد أخذ الجميع مفاجأة رهيبة تضاءلت معها كثيراً مفاجأتها تلك التى وجدته بها يضاجع أخرى.. تجمدت الدماء فى عروقهم لأول وهلة لم تصدق نيفين وكان هذا اسمها الأمر ظنت أن هذه اللحظة أكذوبة كبرى فى حياتها كان من الممكن أن تتخيل أى امرأة أخرى إلا هذه المرأة.. كانت لحظة تضاءلت فيها معانى الخيانة إلى درجة أن أصبحت هذه اللحظة هى المادة الخام للخيانة والانفلات والضياع.. تسارعت مئات الاسئلة إلى

ذهنها ولكنها لم تجد اجابات شافية.. فشلت فى أن تفسر خلفيات هذه اللحظة فهى فى حاجة إلى تفسير منه (من ياسر) ومنها (من ناريمان..) أختها.

لم تكن ناريمان فى أى وقت مضى مجرد أخت لنيفين ولكنها كانت موضع ثقتها وأسرارها بما فيها أسرار علاقتها بياسر بأدق التفاصيل حتى تفاصيل اللقاءات الجنسية المتوحشة التى جمعتهما.. باختصار لقد أدخلت نيفين ناريمان عالمها بالكامل رغم أن بينهما أربع سنوات فارق فى العمر فقد أكملت نيفين عاملها الثانى والعشرين منذ عدة أشهر. عندما تعقدت الأمور لم تفعل نيفين إلا شيئاً واحد.. بكت وبشدة وكأنها تنزف الثقة والأخوة والحب وكل الليالى التى باتت فيها فى حجرتهما المشتركة حجرة نيفين وناريمان وقد حكت إلى اختها كل خلجات نفسها وكل معاناة حبها مع هذا الحبيب الطاووسى ياسر انسحبت نيفين من الحجرة الحمراء كأنها تهرب من واقع أليم.. ارتمت على أحد مقاعد الصالة. دفنت وجهها بين كفيها وأجهشت بالبكاء لم يجدا بدا ناريمان وياسر من الانصياع لواقع جديد هو عدم تكملة ذلك الجماع الذيذ

فى هذا اليوم الجميل..

أشار ياسر إليها بأن ترتدى ملابسها وقد تحسر على تلك الذروة الجنسية التى أخذ من أجلها قرصاً من الدواء الغالى.. فى هدوء شديد ارتديا ملابسهما.. خرجا إلى الصالة لا يجدان ما يقولاه.. بعد لحظات كان لابد ليسار أن يفتتح الموقف المتأزم بكلمات مهدئة: نيفين إهدئى.. سأشرح لك كل شىء.

رفعت وجهها وهى لا تزال تبكى فراعها ما هو أفدح من الخيانة، راعها أنهما لم يكنا مكترثان بما آلم بها من فجيعة.. كانت ملامحهما متجمدة باردة مستهزئة بل مستهجنة وهذا ما أزادها ألماً وحزناً ورغبة حارقة فى الثورة ورغبة حارقة فى أن تعلم كيف حدث هذا.. بعد جهد كبير قامت فى وهن.. واجهت ناريمان التى لم تهرب من نظرات أختها.. وفى لمح البصر رفعت نيفين يمناها وهوت على وجه أختها صائحة: خائنة حقيرة.

ترنحت ناريمان بفعل هذه الصفعة الشديدة الفائرة ولكن نظراتها لم تتغير وإن كظمت ثورها هى كأنها تعترف ضمنياً أنها أخطأت وتدخل ياسر فأمسك كتفى نيفين يهزهما فى عنف منهيا

إياها عن هذا التصرف الأحمق. ولكن نيفين ثارت واتهمته هو الآخر بالخيانة وأن فعلته الشنعاء لا تقبل الغفران ثم أرادت أن تنقض مرة أخرى على ناريمان التى لم تحتمل هذه المرة الإهانة فردت لأول مرة ثائرة: كفى.. كفى يا نيفين.. ليس من حقك هذه الثورة.. وليس من حقك أن تتهمينى بالخيانة.. أنا أحب ياسر مثلما تحبينه وقد كان أمينا معى من أول يوم صارحته فيه بحبى قال أنه يحبك وأنت تحبيه وأنه لن يحب غيرك ولكنه فى نفس الوقت لن يتزوجك لا أنت ولا أى امرأة أخرى وأن حبكما لا يتعارض مع علاقاته الجنسية معك ومع الاخريات وما أنا إلا واحدة ممن أحببته وضاجعته.

كانت الكلمات تسقط كالصاعقة على رأس نيفين حتى اللحظة لم تصدق ما رأت ولا تصدق الآن أن هذه هى ناريمان كاتمة أسرارها وصديقتها الحميمة وأختها وهى الآن من تريد التبرير لها أنها تضاجع حبيبها..

كان رد نيفين كلمة واحدة: قذرة.

وهنا ثارت ناريمان ثورة عارمة كأن الكلمة قد وقعت على

شعور يموج بها.. تنحى ياسر عن الموقف واحتار بين السعادة التى تغمره وهو يرى اثنتين تتصارعا من أجله وبين ادراكه عدم قدرته عن أداء دور ما يخفف من حدة الموقف فقد وقع المحظور الذى يخشاه منذ مدة طويلة لا حيلة له فى التخفيف من صدمته وآثاره.

وردت ناريمان: أنا لست قذرة.. أنت.. أنت يا نيفين السبب فى كل ذلك فلا تلومين إلا نفسك لقد أحببت ياسر قبل أن أراه وأنت من جعلتنى احبه..تذكرى.. لقد بدأت تروين لى عن أسرارك منذ ثلاثة سنوات كنت ساعتها فى الخامسة عشرة من عمرى.. كنت عصفورة رقيقة من البيت الفقير إلى المدرسة الحمقاء.. كنت أخجل من كلمة مغازلة من صبى مثلى وكنت أعتز ببكارتى وبجسدى.. أنت من أيقظت فى الرغبة.. أنت التى حكيت لى عن تطور علاقتك بياسر منذ ست سنوات منذ أن كان سنك ستة عشر عاماً.. حكيت لى عن الحب وعن الجنس ولم تكتف بذلك بل رحت تحكين لى عن تفاصيل علاقاتك الجنسية مع ياسر وعن شعورك بالمتعة معه بل حكيت لى عن الأفلام الجنسية التى كنت تشاهديها معه بل ما هو إلا فدح من ذلك لقد علمتنى الطرق السرية للمتعة والإثارة

فعصفت بى الشهوة.

ولم تطق نيفين هذه القسوة كأنها تتبرأ مما فعلت أو كأنها لا تريد الربط بين ما فعتله مع أختها وبين ما رأته بينهما

فردت: اصمتى.. اصمتى.

ولكن ناريمان لم تصمت فثارت أكثر فأكثر:

نيفين أنت من علمتنى الجنون فالرغبة جنون وأنت من علمتنى الحب وممارسة الجنس فكيف لا تتوقعين من فتاة فى مثل عمرى أن يحرقها الحلم بأن تكون أنثى وكيف لا تتوقعين منى ألا يأخذنى الجنون من عالم الحلم إلى عالم الواقع كنت أبحث عن مغامرة مع من يغازلونى بالشارع لأُشبع بها رغبتى وكنت أتعلق بالأغانى كما تفعلين..لأهيم مع كلماتها فأحببت كل المطربين وتخيلت مضاجعتهم فى خيالى بل راسلتهم وطلبت من احدهم صراحة أن يضاجعنى وانتظرت رده ولكن لم يأتنى رد بالطبع أتعلمين لماذا فعلت ذلك؟ لأننى أحببت عن طريقك ياسر.. أحببته من وصفك له ومن عشقك له ومن وصفك لقدرته على إروائك حتى وأنت عذراء وعشقته لأنه له الكثيرات من العاشقات. كنت

أهرب من هذا الحب الذى اعتبرته حباً آثماً فكيف أسطو على حب أختى حتى جاءت اللحظة الفاصلة وقدمتيه أنت إلى اسرتنا على هيئة صديق العائلة.. فجأة وجدت فتى أحلامى ماثلاً أمامى فهويت إلى حبه أكثر وظللت أقاوم حتى صارحته بحبى له منذ عام كامل.. صارحته بكل شىء حتى بأفكاره ولم أطلب منه إلا أن أكون عشيقته وطلب منى البكارة فأعطيتها له عن طيب خاطر ومن هى التى تحتفظ بالبكارة اليوم عن عذرية حقيقية لا عن ورقة فى مهب الاحتكاك؟!

وردت نيفين: كل هذا ليس عذراً... أنت خائنة خائنة.

ناريمان: أنا لم أخنك.. ياسر يهوى النساء وأنا من النساء أو أصبحت من النساء وأنا لم أطلب منه أن يكرهك أو حتى أن يحبنى دونك لقد قدمت له نفسى عشيقة مع احتفاظك بحبه واحتفاظه بحبك...

أنا مجرد فتاة ضاجعها بعد أن حولتيها أنت من العقل إلى الجنون ومن الطهارة إلى الدنس ومن العفة إلى المجون..

نيفين أنا أحب ياسر بلا أمل ولكن الفارق بينى وبينك هو أنه يحبك لهذا تركك بالغشاء وأنه أحب فيه الرغبة والجسد وتفاهمنا

على ذلك..

نيفين: أنت تريدين أن تحمليني الخيانة.. لقد كنت أعتبرك كاتمة أسراري ولم أتخيل أن كلماتي ستثيرك إلى هذه الدرجة..

ناريمان: نيفين كوني عاقلة لقد نشأنا سوياً بلا أب وحاولتي أن تكوني أنت الاب أحيانا ولكن المأساة تفرض نفسها.. هل يمكن للضياع أن يهب النجاح.. هل يمكن للتفسخ أن يهب الصمود لقد عاشت أسرتنا تكافح من أجل الحياة بعد أن تزوج أبونا بأخرى غير أمنا وتركنا بدون ما يقيم أودنا اللهم إلا اللمم.. عانت أمنا كثيراً حتى صارت تشحذ.. ما نحن فيه نتيجة طبيعية للظلم أنت وجدت الحنان في ياسر ولم تجده في أبينا وأنا وجدت فيه الارتواء لما بثتيه أنت في حياتي من جنون.. الكل فاشل وماجن وظالم.

يا نيفين: ليس هذا هو كل شيء فالإثم أكبر من خيالك فياسر لا يضاجعك أنت فقط في عائلتنا المحترمة ولم يقصد بكارتي فقط ولكن له علاقة ساخنة بأمنا..

هوت كلماتها كالصاعقة الجديدة على رأسها.. أمنا؟ مستحيل مستحيل هذه وضاعة..سفالة.. انهيار.. انحطاط.

لقد ظلت أمها رمز الكفاح فى حياتها ظلت رمزاً مضيئاً رغم احساسها الداخلى بأنها آثمة لأنها قد سلمت ياسر جسدها وهذا هو ما جعلها تحجم عن الافصاح لامها عن مكنون تجربتها فأفصحت لأختها فأفسدتها دون أن تدرى. الآن هذا الطاووس يزحف بل زحف إلى الأم.. نور. لم يبق فى العائلة إلا الابنة الصغرى البريئة (عزة) صاحبة السبع عشرة عام.. بعد دقيقة كاملة دارت بعينيها إلى أختها من ياسر وقالت فى صوت متهدج:

أمنا؟!

وردت ناريمان فى تسليم عجيب: نعم.. أمنا.. وأنت أيضاً السبب أنت من أدخلت ياسر بيننا كصديق.. قلت لك أننى قاومت حبى له ولكنى وهبته نفسى عندما عدت إلى بيتنا الفقير يوماً فى غير موعدى.. تماماً مثلما حضرت الآن.. لأجد ياسر مع أمنا فى غرفة نومها.. واجهتهما ولكن أمك.. أمنا صفعتنى ولم تدافع عن نفسها بل جهرت لى بالعلاقة ومنذ أشهر خالية وأنها سوف تستمر إلى ما تريده هى وأنها لم تعد تخشى أحداً لا الأب المبتعد ولا الجيران ولا ما أسمتهم الناس ولا أحد.

وإلى هنا لم تستطع نيفين الحديث فقد أدركت أنها تحتاج إلى تفسير من ياسر نفسه ولكن ياسر زاغ ببصره وقد آثر الصمت.. ولم تتوقف ناريمان فقالت فى هدوء:

لا تتفاجأى يا أختاه فالكل منهار وكل شىء للبيع لقد آن الأوان أن نشترى ونبيع نحن أيضاً وقد آن الأوان أن نكون من الأثرياء وهذا موضوع جديد سأترك ياسر يرويه لك لأن أعصابك لن تتحمله منى.. إن هناك مشروعاً فى حياتنا يكاد يكون مشروعاً وطنياً قومياً سيخرجنا من الفقر والعوز إلى بداية الطريق إلى الحياة والثراء ونحن أنا وأمك نريدك معنا فى هذا المشروع.. أرجو ألا تعارضى فى هذا المشروع بالعاطفة ولكن عليك أن تشاهدى الواقع.. كل الواقع.. من حولك، لتأخذى القرار الصحيح بالانضمام إلينا فى هذا المشروع لقد آن الأوان أن تخرجى من حالة الحب التى سيطرت عليك ووهبتك.. إلا الغشاء.. إلى ياسر إلى حالة الحياة التى لا تعترف إلا بالدولار.

همت نيفين أن تسألها عن هذا المشروع ولكن ناريمان كانت قد استعدت للخروج وعندما وصلت إلى الباب قالت:

نيفين أعود أقول لك أننى لست قذرة أنا واقعية وإن كنت قذرة فلن أكون أكثر قذارة من معلمتى.. أقول هذا وستعلمين معناه من ياسر بعد قليل..

خرجت وأغلقت الباب فى هدوء بعد أن هندمت ردائها..

كانت الأفكار تعصف بعقلها تتداخل الأسئلة وتخمن أجوبة تحاول بها أن تبرئ ياسر ولكنها بعد حين تدرك أنها أجوبة هاوية ضعيفة فيعود من جديد فى قفص الاتهام ورغم تلك الضربات المتلاحقة ورغم أنها كانت تود تبرئة ياسر من كل هذه الآثام الشخصية ولكنها كانت قد بدأت تفهم لأنها كانت تعلم الطاووس أكثر من غيرها وطوال أعوام ست.

أما ياسر فقد بدى أنه غير مضطر إلى تبرير موقفه فقد أفادته ناريمان كثيراً فقد صارحها منذ سنوات طويلة أنه لن يتزوجها ولن يتزوج امرأة أخرى سواها رغم حبه العميق لها لسبب بسيط أنه لا يثق فى أى امرأة مهما كانت حياتها ومهما كان سنها فشعاره (من فراش إلى فراش ليس لنا إلا القرار...) إذن فلا يوجد أى حق لها عنده وأنها تتحمل المسئولية كاملة لما حدث لأختها معه.. ورغم

ذلك فقد كان يقدر وقع المفاجأة على نفسها الرقيقة والتى يعلمها جيداً لهذا فقد قرر أن يكون لطيفاً معها:

نيفين.. أنا آسف.. آسف إن كنت قد آلمتك.

وجاهدت لتخرج الكلمات.. كانت تريد أن تتأكد مما يدور بخلدها ومفادة هل كان دخول ياسر إلى البيت مصادفة أى حسن نية منه أم كان تدبيراً مبيتاً منه لاغتيال الاسرة.. فقد تذكرت الآن أنه هو الذى أوحى لها بفكرة أن يكون صديق الاسرة وفى هذا تقديم لعدم إثارة اللغط من أسرتها إذا ما وصل إليها أخبار لقائهما فى شقته وفى نفس الوقت يكون أكثر قرباً منها وأكثر قدرة على الاتصال بل فى أى وقت. تتذكر الآن أنه لم يقترح هذا الاقتراح إلا بعد أن روت له كل التفاصيل عن أسرتها حتى عن عزة أختها الصغيرة التى استقلت منذ سنوات فى حجرتها الصغيرة بعيداً عن الجميع فهى متفوقة وتريد أن تلتحق بطب القصر العينى فى يوم من الأيام.. وروت:

آسف؟! على أى شىء فى جريمتك تتأسف؟! هل وصلت بك الدرجة إلى أن تغتال أمى... أمى.

- أنا لم أغتلها.. كانت وحيدة محرومة من حنان الرجل.

- وكنت أنت هذا الرجل؟!

- صدقينى إن الأمر كله رغماً عنى وأنت تعلمين أننى أضعف دائماً أمام النساء.

- لم يكن الأمر مجرد صدفة.. لقد دبرت لاغتيال أسرتى إننى الآن أتذكر كل شىء كنت تطلب منى وصفاً دقيقاً لكل شىء بالبيت حتى جسد اختى وأمى.. كنت تسألنى عن أشياء غريبة وعن القضية التى رفعتها أمى ضد أبى لطلب الطلاق وعن الفترة التى بقيت فيها أمى بدون أبى..

إن كل أسئلتك كان توحى بأنك تدبر لفكرة اختمرت فى رأسك.. ثم أننى أعرفك أنت تصطاد الفتيات فى السادسة عشرة لأنهن مجنونات شبقات وأنت من تصطاد الأرملات والمطلقات لأنك تعلم أنهن يحلمن بالرجل بعد أن آلمتهم الوحدة وطحنهن الحرمان إلى الرجل.. أننى أحفظك عن ظهر قلب ولن تستطيع خداعى مرة أخرى..

- أنا لا أريد خداعك ولكنى لن أكون أمامك متهماً بأى حال من

الأحوال.. أنا لا أخاف أحداً وبالتالى لا أخافك ولن أخافك.. نعم.. لقد فهمت من كلماتك عن أسرتك الحالة النفسية التى تعيشها أسرتك.. تخيلت أن ناريمان أختك كان لابد لها أن تعيش فى جحيم بعد أن أضرمت أنت بها النار وأنه لابد لأمك التى تدخن السجائر بشراهة أن تكون فريسة الوحدة والرغبة التى تحن إلى الارتواء.. فهل أترك هذه الفرصة لغيرى؟! محال ولقد تأكدت بعد أن أصبحت صديقاً للأسرة. كانت أختك تطيل معى المكالمات عن تعمد وكانت أمك تنظر إلى جسدى الذى تعرفيه جيداً نظرة المتوسل.. وكان ما كان..

- أنت اغتلت أسرتى.. أنت حقير.. حقير..

صفعها بشدة فهوت أرضاً وقال فى حنق:

- لا تهدمى فى لحظة طيش حياة عميقة عمرها ست سنوات.

- أى حياة؟ حياة العار والزيف والقذارة

- أنت الآن تنكرين فضلى عليك.. تنكرين تخطيطى المتقن لحياتك طوال هذه السنين.. أين كان أبوك عندما تركك قطة ساذجة وعمرك اثنا عشر عام؟! تذكرى أول لقاء بى معك.. وأنت فى السادسة عشرة من عمرك.. فتاة بيضاء.. فى جسدك وعقلك.. بلا تجارب بلا

فكر بلا مستقبل بلا تخطيط ولولا أننى وجدت فيك البراءة التى لم أجدها فى كثيرات لكنت اغتلتك أنت شخصياً وحولتك إلى امرأة فى لحظات.. لقد أحببتك وعلمتك الحب وعلمتك الجنس ومتعتك كما لن يمتعك رجل آخر فى الدنيا وليس هذا فقط بل أغدقت عليك من مالى فاشتريت الرداء والزينة وكثير من احتياجاتك الخاصة وحمستك للمذاكرة حتى لا تضيعين ونجحت فى الثانوية العامة بعد أن ذاكرت لك بنفسى بل وجعلت أصدقائى يدرسون لك دروسك مجاناً بل واخترت لك آداب قسم انجليزى لأن اللغة اليوم الأجنبية طبعاً هى السلاح الذى لا عمل بدونه ماذا فعلت زميلاتك الآن ممن دخلن كليات أخرى وأقسام أخرى بالآداب؟ لا شىء.. وليس ذلك كل شىء.. بل أنا الذى تدخلت وأوجدت لك وظيفة تتكسبين منها المال لتنفقى على نفسك وأسرتك حتى لو كانت هذه الوظيفة مؤقتة إلى أن آخذك إلى مجال السياحة.. مجالى، لتعملى بجانبى فلا تفارقينى.. كنت أنا الحبيب والعشيق والأخ والأب وكل شىء حتى المعلم وفى الدراسة والحياة والجنس.. أريتك عشرات الأفلام الجنسية المرصوصة فى مكتبتى لأكمل فضلى عليك.. باختصار

لقد كنت لك الحياة فى حد ذاتها والآن تتهمينني بالحقارة؟! أنت جاحدة وظالمة وحمقاء..

ابتسمت ابتسامة سخرية وردت فى حزن عميق:

أنا أريد أن أقول لك شيئاً.. أنت لا شيء..وكل هذا ليس مبرراً لاغتيالك لأمى.. هل تعلم معنى كلمة أمى؟! لقد كانت أمى الرمز الوحيد المضيء فى حياتى.. حياتى التى حولها حبى لك إلى قذارة وشذوذ.. أنت مغرور.. مغرور بجسمك وبقدراتك الجنسية وبوجهك ومغرور بما أود الاعتراف به لك أنك على قدر هائل من القدرة على معرفة وفهم أى امرأة تقابلها فى لحظات..

أنت طاووس.. هذه هى الحقيقة أنت طاووس..والطاووس للزينة وليس لأى شيء آخر لقد أحببتك نعم.. اعترف وأنت أحببتنى.. ربما.. ولكن قل لى ماذا يعنى هذا الحب بلا احترام.. أنت لم تحترمنى عندما مارست الجنس معى عندما حولتنى إلى رغبة متوحشة فأفسدت بها أعز من لى فى الحياة.. وأنت لم تحترمنى عندما اتخذتنى جسداً إلى اسرتى لا لتستغلها ولا لتنصب عليها ولكن لتضاجعها لتمارس معها الجنس بكل أنواعه بما فيه الشذوذ..

نعم أنت علمتنى الحياة ولكنك حطمت فيّ الكرامة..

-نيفين.. أنا أقدر حالتك.. فالصدمة بل الصدمات قاسية عليك.. اهدئى لأن ما أحتاجك فيه أهم بكثير من كل ما مضى.. نحن الآن على أعتاب مشروع كبير سيأخذنا إلى أول درجات الثراء.

- أنا لا أريد شيئاً منك.

- لا ترفضى إلا بعد أن تعرفى.

- ماذا تريدنى أن أعرف؟

- نيفين.. أريدك أن تمثلى معى فيلماً جنسياً.

وكأن مفاجآت اليوم لا تنتهى.. فغرفاها.. ترنحت.. هوت على أقرب مقعد.. فأزاد

-نيفين القصة ببساطة أن مستر جورج أتى إلى القاهرة ليصور أربعة أفلام جنسية بأبطال مصريين ولكنه صاحب فكر فهو يريد لِلأفلام الأربعة ذكراً واحداً وأيضاً يريد أن يكون للأفلام الأربعة فكرة جديدة هى أن ذكر الفيلم أى البطل سيمارس الجنس مع أسرة وليس مع بطلات متفرقات.. أى أن الذكر سيمارس الجنس مع أم وابنتها أو ابنتيها تماماً مثل حالتنا هذه وبالفعل استطاع مستر

جورج أن يجد ثلاث أسر كل أسرة مكونة من أم وابنتين وبالطبع كلهن نساء ليست بينهن عذراء واحدة.

وقد صممت أن تكون الأسرة الأولى فى الفيلم الأول هى أسرتك أسرة (نور) أمك والبطلات أنا وأمك وناريمان وبالطبع أنت.

لم تجبه فقد تحولت المفاجآت إلى ذهول فأزاد يجب أن تعلمى حجم المعاناة التى عانيتها مع مستر جورج لأظفر منه على الموافقة بأسرة نور لأنه كان على وشك أن يتعاقد مع أسرة أخرى من حى السيدة زينب.. نيفين هل تعلمين ما هو أجرى عن كل فيلم؟! أنه أربعة آلاف دولار أى أننى سأحصل على ستة عشر ألف دولار فى هذه المهمة الجميلة.. هل تعلمين كم ستحصل كل من امك وناريمان. ستحصلان على ثلاثة آلاف دولار لكل منهما أى أكثر من عشرة آلاف جنية مصرى مبلغ رهيب أليس كذلك؟! بإمكانك الآن أن تحصلى على أكثر مما ستحصل عليه كل بطلات الأفلام الأربعة لأنك الوحيدة العذراء وفض البكارة فى فيلم جنسى سيكون له ثمن آخر.. يا نيفين ليس هذا هو كل شىء فقد وصل مستر جورج إليّ بعد أن بحث فى كل بارات وفنادق وصالات القاهرة..

كان يريد بطلاً من نوع محدد له قدرات جنسية عظيمة.. قوى البينان.. وسيم.. رشيق.. له ملامح مصرية صميمة.. على خبرة عالية بالمرأة وقد رشحنى إليه عدد غير قليل من عمال البارات والصالات نيفين إنها فرصتنا للثراء.. للحياة.. خاصة أن أمك قد وافقت ومعها ناريمان.. لقد أقنعتها بالمهمة بعد يومين كاملين بالمناقشات..

لم تستطع الحديث فقد شعرت بأن كل العالم ينهار أمامها إن حبيبها لم يكتفِ باغتيالها واغتيال أسرتها بل حول أمها إلى محترفة دعارة؟! هرعت إلى الحوض وتقيأت فلم تستطع تحمل المزيد من العار (هكذا فكرت).. بعد دقائق واجهته وقد ازدانت عيناها بنظرة وهتفت: لن أتحول إلى عاهرة مرتين مرة فى السر ومرة فى العلن.

- كنت أعلم أنك مجنونة.

- أنا لست مجنونة.. أنتم اللذين بلا وصف لأن لغتنا على أتساع كلماتها لا توجد بها أوصافكم لأن أجدادنا لم يتخيلوا سلوككم وبالتالى لم يضعوا صفات لكم فى لغتنا

- ما هذه الفلسفة العميقة؟! نيفين أنت لن تمارسين الجنس مع غريب عنك.. سأكون أنا البطل فأنا لن أسمح لأحد غيرى أن

يفض بكارتك..

- أنت لعنة أصابت حياتى.. إننى أقولها لك صريحة لقد جئت منذ ساعة إلى بيتك وأنا كلى حب لك ولكنى الآن احتقر نفسى لأننى أحببتك واحتقر جسدى لأنه رضخ لك واحتقر حياتى كلها لأنك انغمست بها أننى أكرهك.. أكرهك.. واحتقرك من كل قلبى. احتقرك بعدد أيام معرفتى بك وبعد لمساتك لى ولمساتى لك.. إننى لن أكتفى باحتقارك بل سأقاوم هذا العار وسأمنع أمى من أن تتحول إلى عاهرة.. سأمنع العالم كله أن ينهار أمامى.

تركته وهو يهز رأسه علامة الأسى قائلاً: أعلم أنك مجنونة.. خرجت إلى الشارع كأنها ترى الناس لأول مرة.. شعرت أن ثمة شيئاً جديداً فى ملامحهم قد تغير دمهم قد أصبح ماء ولكنها عادت وتساءلت وسط فزعها.. هل الناس هم الذين تغيروا أم أنها هى التى تغيرت ومعها أسرتها؟ المساكن البيوت الجدران الطريق الطوار السيارات كل شىء قد تغير ولكنها لم تكن تدرك إلى أى مدى تغير وهل هذا التغيير تجاوزها ليتركها فى عالم معزول أم أنه سيجرفها فى طياته؟! شعرت كأن الأهرام تنهار وأن السد العالى قد تفتت

وأن النيل الوديع يهدر من خلفها فى فيضان عات من بحيرة ناصر ليغرق الوادى بمياه جديدة.. الجدران تنهار.. الغبار يخنق الصدور ويعمى العيون الحجارة تسد الطرقات.. كانت تود أن تصرخ بلا ولكنها لم تكن تعرف من على وجه التحديد ستقول له لا هل لكل الناس أم لفرد واحد من الناس؟

كل ما كانت تعرفه أنها لابد أن توقف هذه الكارثة لابد أن تواجه أمها وتوقفها عند حدها.. دخلت إلى شارعها شعرت أنه يلفظها وأن سكانه يرونها عارية هى وأسرتها ولكنها جاهدت حتى وصلت إلى دورها وفتحت الباب فواجهتها ناريمان وقالت لها: (أمك تنتظرك بحجرتها) فى خطى مهترئة دخلت إليها.. كانت تشعل سيجارة فى قلق وقد بدى عليها أنها تعرف ما ستقوله لها.. التقت العيون فى نظرات لا تتسع معانى اللغة لوصفها فكيف للغة أن تصف الازدراء والسقوط والاحجام والقلق والرجاء والقنوط واليأس والفقر والتطلع والبؤس والحرمان والبنوة والأمومة والمثل الأعلى والانهيار فى لحظة واحدة؟ وكما تستحى اللغة استحت نيفين ولم تستح الأم التى قالت فى جفاء: ماذا تريدين؟

ردّت نيفين بكلمة واحدة كأنها تريد أن تقولها: ماما.

ولكن الأم أخفت تأثير الكلمة التى انخلع لها قلبها عليها فقالت: نعم.

- ماما.. لقد حكى لى ياسر كل شىء.

- ولكنى لم أكن فى حاجة إلى أن يقول لى شيئاً عن علاقتك به فقد فهمت ومنذ فترة طويلة أنك على علاقة بشاب وعندما جاء ياسر إلى بيتنا الصغير الفقير عرفت أنه هو الشاب الذى ضاجعك.

- ماما.. سامحينى.

- ليس هذا هو وقت التسامح.. ما فات قد فات.

- ماما.. نستطيع أن نبتعد عن كل هذا الماضى الآثم.

- ومن قال أنه آثم؟!

- إنه آثم

-بمعايير جديدة لم يعد آثم.

- ماما.. لا تفعلى.

وهنا تجمدت نظرة الأم ولكنها لم تستطع مواجهة الإبنة فأدارت وجهها إلى الشارع.

- ماذا تقصدين يا نيفين؟

- أنا أقصد هذا الشيء الرهيب الذى قاله ياسر.

- ما هو؟

- الفيلم

- هل تريدين الاشتراك معنا فيه؟

- بالطبع لا

- ولماذا بالطبع.. يكفيك لا.

- ماما. إن هذا عار.. عار.

وضحكت الأم ضحكة رقيعة ساخرة.

- نيفين وماذا الآن غير العار؟ حبيبتى الصغيرة قد فات أوان المقاومة..

- لا يا أمى.. الفرصة مازالت أمامنا لكى نعيش شرفاء الكل يخطئ ويصيب ودائماً هناك توبة ورجوع إلى الحق.

- لمن أرجع إلى الحق؟ أإلى أبيك؟ الذى تركنى وتزوج بأخرى ورمانا جميعاً حتى أنتى، كنت أشحذ مصروفاتى منه باكية؟! أإلى أقاربى الذين لم يساعدنى منهم أحد إلى درجة أن ابن عمى كان يراودنى عن نفسى؟! إلى الناس وما أدراك ما الناس يا بنيتى.. الناس

الذين يتدخلون فى حياتنا دون أدنى احترام لمشاعرنا ولا يحترمونا إلا إذا كنا أغنياء ويحتقرونا إلى درجة الإهانة والتجريح إذا كنا فقراء.. أإلى المجتمع ككل الذى لا مجال فيه للرحمة وقد أخذ يبيع كل ممتلكاته من أجل أن يأكل، أإلى العالم الذى سلبنا أموالنا وأرضنا بالقانون؟!... بنيتى اننى أحتقر كل ما ذكرت ولم أعد أحترم إلا المال.. الدولار هو سيد العصر هو الذى انحنى له كل الرؤوس.. لقد طحننى الفقر والحرمان.. نيفين اننى امرأة كانت أحلامى أن أكون زوجة مطيعة. والله العظيم مطيعة.. وأن أكوّن أسرة وأعلمها رغم تعليمى البسيط جداً.. كانت أحلامى أن أكون ربة أسرة طبيعية محترمة مخلصة ولكن والدك سقانى الذل ورمانى دون أدنى حقوقى الشرعية.. أهان أنوثتى.. تركنى فى مهدى هذا وحيدة عشرة سنوات هل تعلمين مدى المعاناة التى عانيتها وأنا أتضور حرماناً، ليس هو الجنس يا حبيبتى ولكن الجنس فى جوهره هو العطف والحب لقد حرمنى أبوك من ارتواء انوثتى ورمانى إلى حجرتى تلك وحيدة أعانى الوحدة والحرمان والرغبة بل لم يرد طلاقى وأصبحت كريشة فى الهواء بلا طموح أو حب أو مستقبل.. وكل من حولى على اختلاف

ألوانهم وأشكالهم ومناصبهم تركونى وحيدة حتى القانون المزعوم لم يعطنى حريتى لأبدأ حياة أنثوية جديدة مع رجل يحبنى وأحبه.. القانون رفض دعوى الطلاق والمجتمع المزعوم أذلنى ورفض أن يعطنى حقى فى الحياة حياة شريفة نقية حتى من كانوا يساعدونا كانوا يمنون علينا.. أين الرحمة فى هذا العالم؟ لا يوجد إلا القسوة والظلم والوحدة والحرمان والساحر الجديد.. الدولار صدقينى يا ابنتى أنا لا أريد هذه الحياة ولكنها الطريق الوحيد لتحقيق ذاتى ومعى ناريمان فى هذا المجتمع.. هل تعلمين ماذا يعنى أن يكون معك ثلاثة آلاف دولار؟ هذا يعنى أننى سأستطيع أن أرفع دعوى خُلع وأكسبها وأرمى إلى أبيك الحقير كل مستحقاته وأفوز بحريتى..يا نيفين إن الطريق ينادينى وقد آن الأوان أن أكون ثرية.. إن هذا الفيلم الذى تتحدثين عنه كأنه عار هو مجرد بداية لما قد تسميه الدعارة أو البغاء ولكننى أسميه ممارسة دور فى المجتمع تقبل ما هو أبشع من البغاء إنه التنازل عن أرضه وشرفه وكبرياءه وأبسط حقوقه فى ماله وتقرير مصيره وممتلكاته.. نيفين لن أكون أول داعرة أو أول متنازلة فقد سبقنى ملايين الملايين لا فى مصر

فقط ولا فى بلاد العرب فقط بل فى كل الدنيا..

- ماما إن هذا الفيلم سيعرض فى كل مكان وستكون فضيحتنا رهيبة.

وتضحك الأم مرة أخرى ضحكتها الرقيعة الساخرة: نيفين أنا أريد لهذا الفيلم أن يكون حديث الساعة لا مجرد أن يراه من يحب أن يرى أفلام الجنس..

ولنكن صرحاء ما هو الفارق بين ممارسة الجنس فى حجرتى هذه مع ياسر وممارسة الجنس معه فى حجرته الحمراء وبين ممارستها أمام الكاميرا؟! الجوهر واحد والفرق الوحيد بين السر والعلن هو الحياء وقد سقط الحياء منذ زمن طويل فى حياتنا.

- ماما.. أنت تهدمين كل شىء.

- أنا لا أهدم شيئاً ؟أنا أحاول أن أعيش بين ما هو فعلاً متهدم وأطلال.. إن الشىء الوحيد الحيّ فى حياتى هو ياسر وكل ما دون ذلك موت وحرمان.

- أنا لا أعرف ماذا أقول لك.

- أنا التى أريد أن أقول لك أن الفرصة لاحت أمامك لتكسبى عشرة آلاف جنية فى ساعتين وربما أكثر فى مقابل ورقة لم تعد البنات تحفل بها

كثيراً والأهم من ذلك أنها بخبرتك وتجاربك لم تعد تعنى شيئاً.

- أنت مصممة؟

- أشد التصميم.. ومعى ناريمان.. والليلة سأقابل مستر جورج لأضع اللمسات الأخيرة على كل شىء بينما ناريمان ستكون فى مذاكرتها الليلة.

لمحت الأم الدموع فى عينى نيفين وهذا دليل اليأس فقررت إنهاء هذا الموقف الغريب فقالت فى هدوء:

تستطيعين الآن الانصراف.. لقد انتهى الأمر.

لم تجد نيفين كلمات أمام هذا الانهيار المتفلسف فانسحبت باكية لا تعلم هى هى المجرمة الحقيقية أم هى مجرد شاهدة على انهيار عالمها هذا الانهيار المبين.. كان الشعور بالذنب يسحقها فلم تسامح نفسها أبداً على حياة الاثم الماضية والتى استفاقت منها منذ ساعات فقط ولن تسامح نفسها لأنها هى التى أدخلت ياسر إلى أسرتها فكان هذا الانهيار الرهيب.. راحت تتساءل.. فيلم جنسى ؟ (موش ممكن) ذهبت إلى عزة فى حجرتها فقد قررت من اللحظة أن تفارق ناريمان.. ذهبت إليها ربما لتلتمس فى عينيها الطهارة

وربما لتحافظ عليها فى مثل هذا المحيط المدنس.

وربما لتلتمس عندها الراحة والهدوء.. التقت عيناها بعزة التى كانت تقرأ فى كتبها الرقيقة الدقيقة وقد أمسكت بيمينها ساندوتش فول تلتهمه فى دقة.

ابتسمتا وجلست عن قربها فى هدوء..

مرق ياسر بالطريق إلى الجناح الفخم فى أفخر فنادق القاهرة المطلة على النيل والذى يقيم به مستر جورج كان الموعد لتحديد بعض النقاط ويخبر مستر جورج أن نيفين قد اعتذرت عن الفيلم.

استقبله مستر جورج استقبال حافل كاستقبال الأبطال ودعاه إلى الخمر فلبى مسرعاً ممنياً نفسه بأجود أنواع الخمور.. كان مستر جورج يتقن العربية لهذا لم يجد ياسر أى مشكلة فى التفاهم أكد مستر جورج أن أجر ياسر سيكون أربعة آلاف دولار عن الفيلم الواحد وقد وافق مستر جورج أن يكون التصوير ببيت ياسر الواسع فى شارع القصر العينى وبالتحديد فى حجرته الحمراء بعد أن تزدان بما اقترحه مستر جورج من زخارف وخلفيات فرعونية ثم اقترح ياسر أن يكون التصوير بعد أربعة أيام وهو ما يوافق الحصول

على أجازته من عمله بمناسبة رأس السنة الهجرية. وقد وافق مستر جورج على هذا التوقيت بل شرح له ياسر بعض التفاصيل عن احتفال المسلمين بهذا اليوم وبعض ما تذكره عن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وقد فوجئ ياسر بأن مستر جورج لديه الكثير من المعلومات عن هذا الحدث الفاصل فى التاريخ الإسلامى. اتصل ياسر بنور بالمحمول يدعوها إلى رؤية مستر جورج لتضع معه اللمسات الأخيرة وتسمع منه كل ما تريد أن تسمعه على أرض الواقع وما هى إلا ساعة من الزمن إلا وجاءت نور تتهادى فى أجمل زى لها.. تصعد إلى الجناح الفاخر وقد اعتصرها الألم لكل ما مضى من حياتها فى بيتها الدميم.. انسحب ياسر بناء على طلب مستر جورج.. جلسا تواجها.. كانت هذه أول مرة تواجه نور بها أجنبياً.. كانت تراهم عبر التلفاز فقط ولكنها أيقنت أن الواقع يختلف عن أشياء كثيرة فى التلفاز.. تفحصته جيداً من باب الفضول.. شعر أصفر قد بدأ المشيب يغوص به.. عينان زرقاوان لامعتان غائرتان ضيقتان يشع منهما المكر والذكاء جسد ضخم فولاذى.. أنامل خطافية.. ملامح تشع ثقة واطمئنان..

شفتان لا تفارقهما الابتسامة التى تتحول من حالة إلى حالة حسب الحوار.. أما هو فهذه أول مرة يجلس فيها إلى امرأة عادية من نساء الشرق إنه له خبرة كبيرة كسينمائى بمناطق كثيرة من العالم وله مغامراته البريئة والجنسية بكل مكان فى العالم وقد ضاجع أثناء رحلته الإنتاجية الكثيرات من نساء العرب والعالم.. منهن الصحفيات والفنانات والعاهرات والراقصات. ابتسم فى هدوء وهو يتذكر كيف ضاجع على سبيل التجربة.. رجل عربى ودون مقابل.. هو لا يعرف لماذا تدفقت كل هذه الذكريات إليه عندما جلس أمام نور.. راحت عيناه تعبث بها ولكن دون أن تدرى فقد كان كبرياؤه يمنعه من أن يلهث بعينيه خلفها من أول وهلة خاصة أنه أدرك أنه قد بهرها بمجرد النظر فقد قرأ هذا الانبهار فى عينيها.. عينان سوداوين لامعتان تشعان سخونة ودفء ملامح على جمالها المتوسط ولكنها تفيض بالأنوثة خاصة الشفتين المجرمتين والبشرة الخمرية. جسد على الرغم من بداية الترهل الناشب به إنما يحمل آثار الجمال والتناسق والرشاقة المستغيثة بالماضى من الحاضر.. أنامل طويلة رقيقة تعكس الأنوثة ساقان منحوتتان بدقة تصرخان

بالجمال وتنمان عن كل ما يعلوهما من بضاضة ونضج.. اشتعلت رغبته لا لأنه كان سريع الاثارة كعادته ولكنه لأول مرة ومنذ فترة طويلة يشعر بأنوثة امرأة.. تمتم فى نفسه.. هذا هو سحر الشرق.. الدفء.. الأنوثة.. الثورة المنغمدة فى أوردة وشرايين البشر..وعندما جالت بخاطره كلمة الثورة.. سيطر عليه شعور عميق بأن يثير هذه الأنوثة المائلة أمامه بل ويغضبها اشتاق كثيراً لرؤية هذا الغضب فى امرأة شرقية (عارية) رحب بها ودعاها إلى خمره الذى يشربه كالماء فوافقت رغم أنها لا تشرب ثم دعاها إلى سيجارة فدخنت فى شراهة وبدأ يشرح لها المطلوب فى بساطة ويؤكد لها أن الفيلم سيكون تصويره هادئاً للترتيب الدقيق الذى رتبه مع ياسر وعندما بدأ الحوار يدور فى اتجاهين وبدأ الانسجام يسرى ألقى بالقنبلة:

عزيزتى يؤسفنى أن أقول لك أن أجرك سيكون ألفين فقط من الدولارات.

وهنا عربدت ملامحها وأطفأت السيجارة فى غضب وأبعدت الكأس فى حنق وردت فى ثورة:

لا.. لا وألف لا.. أنت وعدتنا بثلاثة آلاف دولار وهذا هو ما

جعلنا نوافق على فكرة الفيلم من الأصل..أنت الآن تحنث بوعدك.

علم من ثورتها التى كظمت معظمها أن الحزن يسحقها خاصة أنه علم من ياسر أسرار حياتها وأن الفقر يطحنها وأنها تعانى الوحدة والحرمان حتى ضاجعها ياسر فضغط أكثر على احتياجها.

- تستطيعين الاعتذار.. هناك أسر كثيرة على أتم استعداد لتمثيل الفيلم.

- ولكن هذا ظلم.. إن هذا الإنتاج وهو باكورة الإنتاج وسيكون لأفلامك دويّ كبير لأن ممثليها من المصريين الطبيعيين العاديين الصادقين فى تعبيرهم وإحساسهم ورغباتهم.

- أبطالى من كل بلاد العالم وفى كثير من بلاد العرب

- ولكن هذا أول فيلم جنسى مصرى عربى وأنت ستبيعه بآلاف الدولارات بل بملايين الدولارات فى بلاد العرب وفى أوربا بل فى العالم كله.

- عزيزتى إن المسألة ليست كذلك.. الجوهر أن تقديرى لقدراتك لا تزيد عن المبلغ الذى ذكرته لك.

- قدراتى؟! وما أدراك بقدراتى؟!

- قدراتك هى ما أراه أمامى.. جسدك.. لون بشرتك.. وقدراتك

هى ما قاله لى ياسر عن علاقتك به وأسرارها عندى أنت لا تجيدين فن الجنس مثل ابنتيك وهنا ردت نور كل ما ستقوله لى سأنفذه فأنا وإن لم أكن قد شاهدت أفلاماً جنسية بالفعل ولكن بى ما ليس بابنتيّ.

- ما هو؟

- الأنوثة.. فأنا أعرف نفسى مثيرة حتى لو لم أكن جميلة جداً وبشرتى الخمرية يتهافت عليها من يفهم فى النساء وليس العكس ثم أن هناك شيئاً آخر فى جهلى بفنون الجنس هو أن ردود أفعالى.. ستكون طبيعية غير مفتعلة وفى هذا قمة الإثارة.

وهنا ضحك مستر جورج من أعماقه ثم صمت لحظات وقال فى لهجة ذكورية:

- أنت تبهرينى.. دفاعك عن نفسك كان دفاع أعظم القانونيين.. سيدتى إن أجرك أنت سيكون أكثر من أجر ابنتك ناريمان بخمسمائة دولار أى سيكون ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار ولكن عدينى من الآن أن تكونى بهذا الدفء الخطير.

وكأن الدماء قد عادت إلى ثناياها.. فتهللت ملامحها وأرخت

ظهرها إلى المقعد الوثير وقالت فى ثقة: سترى.

انتهز مستر جورج الفرصة ليسألها عن نيفين التى رفضت التمثيل فى الفيلم فلم تعلق على ذلك واكتفت بأن تقول: إنها حرة.

كانت الرغبة قد تملكت من مستر جورج إلى درجة الجنون فقد صدق بالفعل أن نور قوتها فى أنوثتها الطاغية فقرر أن يضاجعها فبدأ يراودها عن نفسها وهو يعلم أن كل شىء قد صار بثمنه وأن المسألة هى كم ستقبل نور فى مقابل أن ترضخ لرغبته...

فى البداية أعاد الكرة إلى الخمر فازدردت نور عدة كؤوس وعندما شعر أنها بدأت تثمل بدأ يغازلها: عزيزتى نور.. لم أكن أعلم أنك بهذا الحضور الطاغى والأنوثة المتدفقة.

لقد قابلت الكثيرات وعلى جميع المستويات وأكثرهن شهيرات ولكن لم أجد من هى فى مثل دفء مشاعرك..

- أشكرك.

- كان يجب أن تعملى بالتمثيل منذ نعومة أظافرك كنت ستكونين نجمة كبرى فى الشرق.

- الفقر والجهل والحط العثر.

- الخط أتى إليك يا نور.. أنا الحظ.. سأفتح أمامك كل الأبواب.

- هل هذا صحيح؟

- كل المطلوب منك أن تكونى على طبيعتك هذه.. التى فتنتنى.

- هل أثرت بك إلى هذا الحد؟

- إلى درجة الجنون

- هذا ما يجعلنى أثق بنفسى.

- نور.. الليلة جميلة تعالى نتمتع بها.

- ماذا تقصد بنتمتع؟

- أقصد أن نتعرى.. نتخلص من ملابسنا.. ونرتمى فى أحضان بعضنا البعض.

- تقصد المضاجعة؟

- نعم.

- لقد تعلمت لتوى منك لغة المكسب والخسارة.. فكم ستدفع.

وهنا ابتسم جورج فقد صدق حدسه وما هى إلا دقائق إلا وهو يغرس رغبته فى هذه الفتنة الشرقية المثيرة..

وتفاوضا وانتهى التفاوض إلى ثلاثمائة دولار فى مقابل جزء من

هذه الأمسية الهادئة وقد طمأنها إلى أن الأمر لن يأخذ أكثر من ساعة.. أخرج من جيبه ورقاته الثلاثة فتطلعت على الفور عيناها إلى الورقات الثلاثة الخضراء.. أحب أن يداعبها فقال لها: أتجيدين الإنجليزية.

- لا.

- أتعلمين ما هو المكتوب على ورقة الدولار الخضراء؟

- لا

- نظر إليها ملياً وقال فى هدوء: مكتوب على الورقة الخضراء نحن نؤمن بالله.

- كلام جميل.. نحن أيضاً نؤمن بالله.

تعمد أن ينال منها.. ككل رجل.. فتظاهر أن أوراقه الثلاثة قد سقطن من يمينه على الأرض فما كان منها إلا ما توقعه فقد هوت على ركبتيها تلم الأوراق ناهمة..

بدأ فى التجهيز للأمسية فطلب مأكولات بحرية من مطبخ الفندق وبسرعة وأثناء ذلك تجاذبا أطراف الحديث والسجائر والخمر، وعندما جاء عامل الفندق كانت شهيتها قد وصلت إلى الذروة فاشتهته وجاعت.. أكلت بنهم شديد واكتفى هو بأن يأكل

القليل لأنه لم يكن جائعاً بل أحضر الطعام لها حتى تعطيه وهى شابعة ما يريده واستمتع بمراقبتها أثناء الأكل.. بعد دقائق من انتهاء الطعام كان قد أطلق ضوءاً شاعرياً فى الجناح وبدأ يشاهدها وهى تخلع ملابسها قطعة قطعة وعندما رآها عارية سحقها فى المهد كأنه يريد أن يستخرج منها الألم وتعجبت لماذا يعاملها بهذه القسوة؟! وبعد ساعة كان كل شىء قد انتهى فتركها تغتسل بالحمام وراح يسرح بخياله فى شىء آخر.. اعترف بأنه استمتع استمتاع عظيم فهذه المرأة العادية من الشرق أعطته ما لم تعطه كل النساء اللائى ضاجعهن طوال حياته فسرح بخياله إلى نيفين وتساءل كيف ستكون العذراء ذات الخبرة العالية فى مهدى؟! بل كيف ستكون عزة؟ قرر أن يضاجع نيفين كمرحلة أولى وكل شىء يخضع بالمال.. بعد أن ارتدت ثيابها بدأ يجاهدها فى أمر نيفين وراح يقنعها بانه لو كلمها بصفة شخصية ستوافق على التمثيل بالفيلم فوافقت نور على ذلك واتصلت بنيفين تخبرها بأن مستر جورج يريد أن يقابلها لأمر تجهله وأنه قادم أليها فى البيت وعليها أن تستقبله..

رهبت نيفين هذا اللقاء وهبت عاصفة النساء فى ذهنها ماذا

وكيف ومتى إلى آخر الأسئلة.. رفضت أن تستقبله فى غرفتها مع ناريمان أو فى غرفة أمها وأصرت أن تقابله فى غرفة عزة بعد أن تأخذها الأم إلى أى مكان آخر.

أخبرت ناريمان جورج أن نيفين تنتظره بالداخل فاتجه إليها وقد دار بعينيه فى لحظات بأرجاء البيت الشديد التواضع فأيقن أن الثلاثمائة دولار كثيرة فى ساعة من المتعة.. ولج إلى الغرفة وأحكم غلق الباب.. جلست نرمين على سرير عزة وهى متحفزة أمام هذا المنتج الذى أغدق على أمها وأختها الدولارات فهويا إلى الحضيض كان الهدف المعلن الذى جاء من اجله إلى البيت هو إقناع نيفين بالاشتراك فى الفيلم ولكنه هدفه الخفى كان النفاذ إليها قبل أى شىء آخر.. الحجرة كانت صغيرة.. شديدة الدقة.. شديدة الدقة..بها مكتب متوسط الحجم بنى اللون خشبى النوع يلثمه مفرش أبيض وعلى المفرش أباجورة ساطعة وثلاثة رصات من الكتب ومجموعة أقلام لها ألوان مختلفة وفى قلب المكتب تبين كُتيب صغير له ورق أصفر به كلام صغير يناسب حجمه وقد فتح على مصرعيه لم يعرف ما هذا الكتاب ولم يهتم بأن يطيل النظر إليه.. الحجرة لها شباك

واحد تداريه ستارة زرقاء نصف شفافة.. ومهد رقيق به وسادة واحدة وقد اكتسى بغطاء أبيض..

ودولاب صغير الحجم محكم الغلق فلم يتبين ما خلفه من ثياب الحجرة. أيضاً لها كرسيان أولهما خلف المكتب والثانى أمامه وتحتهما سجادة من نوع ردئ.. دار ببصره حول كل هذا وكأنه يتعرف على شخصيتها من هذا الأثاث المتواضع.. جلس على الكرسى الماكث أمام المكتب فى هدوء وقد أخذ يتفحصها بدقة.. عينان سوداوان يشعان وجوم وقلق واضطراب شعر ناعم قصير.. ملامح رقيقة جداً تغرى بالاغتيال وتثير خيال الرجال.. نهد كأنه قد قدُ لقبضته لم تفلح محاولات ياسر معه فى جعله من الهمجية فى شىء.. خصر رائع.. ساقان ثوريان يتمنى أمثال جورج لو يقصيهما عن بعضهما البعض... لون بشرة غريب مزيج من ألوان شتى ولكنه لذيذ شهى.. لم ترهقه الساعة التى أمضاها مع نور بل ألهمته المزيد من الشهوة وتلاقت هذه الساعة بتأثيرها على هذه المفاتن الكامنة فى نيفين رغم أن أنوثتها ليست فى أنوثة أمها.. كانت خطته أن يكسب ودها فى بداية الأمر ليزيح هذه النظرة المتحفزة بعينيها

فأثنى عليها بأدب شديد.

وبدأ يسألها عن سبب اعتراضها عن الاشتراك فى الفيلم فراحت تملى عليه اعتراضات شتى وتقرره أنها كفتاه شرقية لا يمكن أن تقبل بشىء كهذا.. وهنا بدأ ينفذ إليها:

نيفين... صغيرتى الجميلة واسمحى لى أن أقول لك جميلة لأنك فعلاً جميلة.. أنت لن تفعلى شيئاً لم تفعلين من قبل.. لقد كنت تمارسين الحب مع ياسر وكل ما فى الأمر هو الكاميرا.

ومرة أخرى تصر على الرفض وتقول له: إن ما سبق فى حياتها كان عاراً وأنها لن تكرر هذا العار.

فتساءل: أى عار؟

رفضت التعليق على ذلك وقالت: دعنا لا نتكلم عن هذا الأمر مرة أخرى..

غاظه عنادها ولكنه كظم غيظه فقرر أن ينفذ إلى موضوعه مباشرة.

نيفين.. دعك الآن من الفيلم ليذهب إلى الجحيم.. أننى أعرض عليك صداقتى..

- وماذا تعنى صداقتك تلك؟

- صداقة تماماً كالتى كانت بينك وبين ياسر.

- لم تصدق نفسها مَنْ هذا الذى يقتحم بيتها ويعرض عليها أن يضاجعها هل لأنه يملك الدولارات؟

آلمها أكثر هذا الماضى الذى أصبح يطاردها بل يحولها إلى ساقطة من مهد إلى مهد ومع كل الجنسيات.. ردت فى حزم:

- الذى كان بينى وبين ياسر حب ولم يكن صداقة.

- إذن ليكن بينا حب.

- ماذا تقصد؟

- أنت تعلمين قصدى.. أنا أريدك.

- تريد أن تنام معى؟!

-أريد أن أحبك وتحبينى.

- أن ما مضى من حياتى كان عاراً ولن يتكرر.

- سأعطى ما تريدين من دولارات.

- كنوز الدنيا لا تساوى شيئاً أمام شرفى.

- نيفين... حبيبتى الصغيرة.. وكأنك لم تمارسى الحب ست سنوات كاملة مع ياسر وكأنك لم تشاهدى عشرات الأفلام الجنسية وكأنك

لم تتقلبى عل كل الأوضاع والأشكال مع عشيقك؟! أنا مذهول هل يمكن لك أن تقبلى ياسر وترفضينى أنا.. أنا.

- قلت لك أن ما كان ما الماضى هو العار وأنا الآن أعود إلى رشدى.

-حتى لو قلت لك أننى لن أمس البكارة.

- أنا أرفضك.. لا كعاشق ولهان بل أرفضك ضيفاً من الأصل

- ترفضينى.. أنا.. أنا

- ومن أنت حتى تكون أكبر من الرفض.

- نيفين أنت تتمسكين بأشياء انتهت، البكارة انتهت العالم تحول إلى قرية صغيرة يحكمها رأس المال.. أتفهمين رأس المال؟! أنا على ثقة أنك لا تفهمين هذه الكلمة ولا تفهمين معنى كلمة قرية صغيرة الكترونية اتصالية ولا تفهمين المعنى الحقيقى لكلمة بورصة.. نيفين كل شىء تحول إلى أسهم وكل حياتنا تحولت إلى متعة (فايْن) .

- ما علاقة القرية الصغيرة المزعومة ورأس المال والبورصة بفتاة ما تزال تحافظ على القليل الذى تبقى من شرفها والكثير الذى بدأ يعود إليها من كرامتها؟

أطلق زفرة أسى ولكنه لم ييأس.

- نيفين معى ستكونين ثرية.. معى ستصلين إلى القمة.

فى بلدك ومجتمعك وربما العالم.

- أنا أكرهك.. أسمعت هذه الكلمة؟

- ولكنى أحبك.. أعشق كل شىء بك حتى غضبك الشرقى التلقائى الجميل.. الشرقيون يغضبون سريعاً ويفرحون سريعاً.

- هل تريد شيئاً آخر؟

- نعم

- ما هو؟

- الصداقة.

- مرة أخرى الصداقة.

- هذه المرة بدون مضاجعها أنا أحترم الحرية.. نيفين حبيبتى الصغيرة.. أريدك صديقة من الشرق.. أريد محادثتك ولا أريد جسدك إلا إذا رضيت أنت عن طيب خاطر ولكن لتعلمى أننى دائماً فى انتظار اللحظة التى تطلبينى فيها على المحمول لتقول لى أننى أريدك.. أريد أن أنام معك.

- لن تأتى هذه اللحظة.

- أنت لا تعلمين ماذا سيحدث غداً.. بالمناسبة أود أن استشيرك.. بصفتك صديقتى الشرقية فى أمر ما.

- ما هو؟

- عزة

وهنا جن جنونها.

- إياك أن تمس عزة.

- عزة ستكون ساحرة على الشاشة وهى تمارس الجنس.

- لو مسست عزة سأتصل بالشرطة وأدمر كل شىء.

وهنا ضحك مليا وقال فى لهجة واثقة: نيفين حبيبتى الصغيرة.. كل شرطة العالم وأجهزة مخابراتها بل وجيوش العالم كله لا أقول تحت حذائنا بل تحت أقل كعب من كعوب حذائنا.. صغيرتى أنت لا تعلمين ماذا يدور حولك فى العالم لا تعلمين كيف ارتقى العالم.. نيفين نحن الآن نعد لإخضاع الفضاء لا الأرض. أين أنت وشرطتك من هذا النفوذ ؟ أنا أعذرك لأنك صغيرة وحبوبة أمورة لطيفة وشرسة.

أسقط فى يدها لم تعرف كيف ترد ولكنها ووسط كل هذا

الانهيار كانت قد تلمست شيئاً من القوة قد أتاها من الاحتكاك فقد كان جورج بالنسبة إليها مجهولاً ولكنه الآن على قوته التى لا تعرف عنها إلا أنها عظيمة قد أصبح كتابا مفتوحاً أمامها وقد أسعدها فى صميم قلبها أنها رغم جرحها العميق فى ياسر وأمها قد رفضته وصمدت أمامه.. جورج لم يكتف بذلك فقد ابتسم لها وقال فى هدوء: أود أن أوثق صداقتنا يا نيفين هذه الصداقة البريئة لها هدية بريئة منى.

خلع ساعته القيمة الرقمية من معصمه ومد يده بها إليها.

- تفضلى.

قالها وهو ينظر إليها نظرة غريبة لم تفهمها.. مدت يدها إلى ساعته والتقطتها.. نظرت إليها ملياً فأدركت أنها على درجة عالية من الإمكانيات ساعتها هتف:

- هى لك.. عربون صداقة بريئة.. كل ما أطلبه منك أن تكونى موجودة ليلة تصوير الفيلم فى بيت ياسر بعد أربعة أيام. فهل هذا كثير؟

- ولماذا تريدنى هناك؟

- هذا هو طلبى الأول منك ولا يجب أن ترفضيه.

ووافقت بينما كان ذهنها مشغول بمعنى هذه الهدية.

* * *

ليلة التصوير كان كل شيء معداً.. الطبيب بحقنة موضعية لياسر وأربعة أقراص من عقار شهير ازدردهم ياسر دفعة واحدة وهو يعد جورج بأداء عظيم الذى أمره بأن يفعل كل ما بوسعه من أجل الأداء.. مهندس الديكور الذى وضع لمساته الفرعونية على الحجرة فبدت كأنها معبد فرعونى عتيق.. المصوران وقد أعد كامرتيهما جيداً وعمروها بالشرائط.. وأخيراً الأبطال ياسر ونور ونريمان ونيفين صامته تشاهد كل ذلك فى رهبة وذهول.. المائدة عليها ما لذ وطاب من المأكولات البحرية والمشويات والمقبلات من كل الأنواع والأشكال..

وفى قلبها أجود أنواع الخمور وأعتقها.. أكل الأبطال وشربوا قليلاً من الخمر وجورج يوزع ابتسامته على الجميع ودخلوا إلى الحجرة الحمراء التى تحولت إلى معبد فرعونى ودارت رحى الفيلم وجورج

من بعيد يوجه الجميع ويدلى بتعليماته التى تصب كلها على إبداء الانفعال المناسب للحركة.. وبعد ساعتين كاملتين وبعد أن أوشك تصوير الفيلم على الانتهاء حدثت المفاجأة فقد سقط ياسر عارياً مجهداً يعانى من هبوط حاد وما هى إلا دقائق وقد أسلم الروح. ساد الهرج والمرج، وبالأمر كتمتا.. نور وناريمان.. انفعالهما وأمر الجميع بالخروج من الشقة فى هدوء ومعهم الفيلم ودون ضجة.. أصرت نيفين على البقاء.. وللمرة الألف أخذتها المفاجأة.. كان كل شىء ماثلاً أمامها كالحلم.. مائدة الطاعم المعبد الفرعونى.. رائحة السجائر.. العُرى الذى كان منذ دقائق... هذه المشاهد المتتابعة بلا رحمة ومن قبلها هذه الأقراص العديدة التى ازدردها ياسر من أجل أن يثبت نفسه كبطل فى أول الأفلام المزعم انتاجها وأخيراً جثة ياسر عارياً وقد جحظت عيناه وفغر فاه فى مشهد مرعب محزن.. هل هذا هو الطاووس؟ هل هذا هو حبيبها؟ كانت لا تزال تحبه فهى لن تستطيع التخلص من حب دام ست سنوات فى أربعة أيام.. بكت.. بكت حبها وذكرياتها وذلك المصير الأسود الذى لم

تكن تتمناه لحبيبها.. حبيبها الذى قسى عليها واغتال عائلتها.. ماذا تفعل الآن وهى فى مواجهة الموت؟ الموت.. كلمة لم تسمعها منذ نعومة أظافرها ولم تواجهها إلا الآن.. صدمها الموت. أجهز على ما بقى من الأثم بداخلها وخلق منها شخصية جديدة تمقت الماضى أكثر وتتطلع إلى المستقبل أكثر.. لقد الهمها موت الطاووس أنها هى أيضاً ستموت لأنها ببساطة لا تتخيل أن يموت ياسر القوى الفتى الذى يتفجر بالشباب والحيوية ياسر الذى ملأ حياتها وحياة كثيرات من النساء.. إنه الموت الذى لا يترك أحداً وبالتالى لن يتركها.. إنه الموت الذى لم يقل لها عنه أحداً خبراً ولكنه الموت الذى تراه ماثلاً أمامها مادياً ليقضى على ماضى تعيس يعصف بشرفها ولكنها تعلمت منه الكثير.. جاهدت دموعها واتصلت بالإسعاف تبلغه أن ثمة حالة وفاة وأعطتهم العنوان ثم انصرفت تاركة الجثة والدولارات التى تعرف مكانها فى الدولاب الوحيد الكبير فى الحجرة الحمراء فى الشارع كانت كأنها تريد الناس.. تريد أن تراهم ترتمى فى أحضانهم ترتشف من صبرهم تتمسك بالصبر المتشبث بملامحهم.. كانت

تود احتضان الجميع تقبيل الجميع.. شخصت ببصرها إلى السماء وبكت فإنها تريد التوبة ولا تعلم هل سيقبل الله توبتها أم لا.. شعرت أن كل ما حولها كان يلهمها ألا تبدأ فقط حياة جديدة بل يجب عليها أن تنقذ ما يمكنها انقاذها عزة.. لقد فقدت الأمل فى أمها وناريمان واختارتا طريقاً وعرة ولكن عزة لا يمكن لها أن تتركها نهباً لأمها وأختها.. لابد أن تحميها وكأنها بذلك تكفر عن ذنبها مع ناريمان، قررت أن تجر عزة إلى بيت أبيها معها.. قررت أن تعيش مع أبيها على ظلمه لأنها من المستحيل أن تعيش فى بيت دعارة مع أمها وأختها.. وبالفعل عندما عادت إلى البيت لملمت كل ما يخصها وما يخص عزة فى حقيبتها وجرت أختها المذهولة إلى الطريق إلى بيت أبيها ولم تعترض الأم أو ناريمان بل باركتا هذا العمل حتى لا يسمعان لآخر تأنيب لما سيفعلاه وعندما خرجت نيفين من البيت استسلما إلى نوم عميق فقد كانتا متعبتين من آثر المجهود الشاق لمدة ساعتين مع ياسر.. الغريب أن كلتيهما لم تتأثرا كثيراً بموت ياسر بل لم يخزنا من أجل وفاته بهذه الطريقة الدرامية.. أنما نيفين فقد

أحكمت الساعة الثمينة على معصم عزة التى لا تزال مذهولة.. أحكمت الساعة الرقمية على معصمها وهى حائرة هل سيقبلها أبوها وزوجته فى بيته؟ ومن ناحية أخرى فهى حائرة أيضاً لأنها حتى الآن لا تفهم معنى نظرة جورج لها وهو يهاديها الساعة ولا تفهم معنى هذه الهدية من أصله.. نيفين تسير فى الشوارع يحدوها الأمل بحياة جديدة نيفين مازالت تسير ومعها عزة.

الصامت

اليوم ليس كأى يوم بالنسبة إليه هو يوم إعلان النتيجة الجامعية لابنيه ماجد وفريدة.. النوم ليس كالنوم.. حتى الارق ليس كالأرق.. خلد إلى سريره فى منتصف الليل وبعد أن جال بخاطره بالعام السابق كله وبكل صولاته داهمه نوم خفيف لطيف فاستسلم له علّه يتجلى به بصبح يعلم فيه نتيجة ابنه فريد ابن كلية الهندسة وابنته فريدة الطبيبة.. الشىء الغريب أنه ظل عدة أيام قبل يومه هذا صامت.. فقد داهمه القلق فأصابه على غير عادته بالصمت العميق ولكن ذاك الشىء الجميل المتحدث فيه كان يخبر زوجه سلمى بكل ما يعانيه من آلام وكان هذا الشىء المتحدث فيه عيناه ولم تكن تفعل إلا أن تقبل رأسه وتبتسم ابتسامة الواثقة بأن الابنين سوف يعبران آخر مرحلة من مراحل السلم التعليمى وأن ظنها لم يخب فيهما مرة واحدة وهنا تلاقت

العيون جميعها فراح الاب يتنسم آلاء الراحة بعض الشيء.. كانت سلمى تعلم أن أيام القلق لابد أن تبدأ بالصلاة فجراً فى المسجد حيث الجماعة لهذا لم تندهش عندما رأته يضبط المنبه على تمام التوقيت وفى حينها دوى المنبه وفى لمح البصر أغلقه إذ ساعده نومه الخفيف على ألا يصدر المنبه صوته إلا ثلاثة مرات.. وفى سرعة قام وهو يستعد لتقبل الانباء التى حاول جاهداً أن يطمئن نفسه إليها أنها أنباء سارة وعلى الفور دارت عيناه إلى الكومودينو البجانب سريره واطلع على الثلاثة صورات لزوجه والابنين ولم ينطق بكلمة واحدة... ثم ابتسم كأنه يقول إن شاء الله.. قام إلى حيث الروتين اليومى له من وضوء وقد سمح له وقته بركعتين للقيام قبل الصلاة الفجرية ولكن كل ما كان يجول بخاطره هو ما هى نتيجة عمره كله اليوم؟ ماجد سيتخرج مع فريدة من الجامعة وهو يوم مفصلى فى حياته أعاده لا شعوريا إلى أيام الصبا والشباب وأطلق ما أحلى أيام الصبا بنفسه لنفسه فقد فجرّت المناسبة ذكرياته هو عن أيام سماها عنق الزجاجة وهكذا فقد داهمه سيل من الذكريات لم يستطع إيقافه حتى فى صلاته.

انسل إلى الشارع متنعما بنسمة ربيعية فى شهر مايو فاستبشر خيراً وأخذ منها نفساً عميقاً ودارت يداه حول القميص وعنقه وكأنه يستعد ليوم طويل.. كان يسير الهوينى والطريق طويل إلى الحسين فقد آثر أن يصلى فى الحسين.. ابتسم فقد كان يسير فى هذا الطريق منذ عقود مضت.. الطريق مفتوحة أمامه وهو يسير مع ذكرياته.. كان القميص له نفس اللون تقريباً وهو بعد صبياً يعمل فى إحدى هذه المحلات وقد ابتسم وهو يمر بجانبه كان أيامها محل أقمشة ولكنه الآن عطارة كبيرة.. كان هو هو ولكنه الصبى العنيد فى رسم طريق حياته وقد أصر أن يعمل فى صباه رغم أمه وأبيه فاختار له أبيه هذا الحانوت لأنه ملك لصاحبه.. هو قوى... وكان هذا أجمل شىء يعتز به وكان يحمل هذه السمة فى قسمات وجهه المصرية الخالصة التى تبدو وقد تتشابه مع قسمات العديد من الأمصار الأخرى. الحياة بالنسبة إليه معركة صعبة رهيبة وهو منذ صعوبة أظافره أقسم بالله أن يخوضها بالقوة وأن مدى نجاحه فيها ليس بالمال ولكن دون فقد المال... وكان يردد فى حينها (أنا قوي) (وسأكون قوياً عندما أكبر) وهكذا نشأ الفتى على حب الحياة

وتطويعها وهكذا امتدت وجهة نظره إلى أنه لابد أن يكون قارئاً فاختلف إلى المكتبات ينهل من الكتب القيمة فحصل ثقافة لا بأس بها وهكذا أصبحت القراءة صنو عمله.. وكان أول مشروع بدأ فى أعداده هو شراء مكتبة صغيرة له فى نصف أجرته التى ناصف بها أخاه ولن ينسى أن هذا المشروع كلفه ببعض الكتب جنيها فى جنيها وكان هذا الحدث باكورة مكتبة بها الآن ثمانمائة كتاب هى مكتبته الآن وقد أصبحت يافعة ولن ينسى أن أباه قد جاء إليه بكاتبين هدية الأول كان مكرراً وهو القرآن الكريم العثمانى والثانى كان كتابا لم يستطع ابن العاشرة أن يقرأ عنوانه وكان (هملت) وساعتها قال له أبوه (هذا هو القرآن وهو كلام الله ثم أخذ يشرح فيه بعض الآيات وهى الهدية التى لم يفارقها أبداً حتى الآن وعندما سأل الصبى عن هملت أجابه أبوه بأنها الرواية السامقة وأنه سيجيئ اليوم الذى سيشتريها ولهذا فهو يشتريها له من الآن وأنه سيجيئ له اليوم الذى يفهم فيها أن سر ضعف هملت فى أنه ضعيف فعلاً ولا يريده أن يكون هملت.. فهم الصبى فيما بعد أن أبوه كان يراه قوياً وأنه لم يرده أن يكون ضعيفاً وأنه لن يكون فى مثل هملت

الضعيف.. ولعل هذين الكتابين أعز ما يملكهما من كتب حتى الآن.. وقد قرأ الصبى (هملت) وهذا ما جذبه جذباً إلى الدراما فأخذ يتابع المسرحيات ويبدلها حتى أصبح من رواد المسرح وهكذا امتد مشروعه الذى يبدأ بالعمل ليكون له امتداد أولاً المكتبة ثانياً المسرح ثالثاً السينما رابعاً التوفير وعندما كبر الصبى كان البند الرابع هاماً لديه من أجل الزواج ورغم أنه الأخ الأصغر فى العائلة الصغيرة إلا أنه هو أول من تزوج فيها.

هو الآن.. بينما هو سائر إلى الحسين.. يرى صباه ويرى نفسه يدلف إلى مدرسته الابتدائية ليعرف درجاته ثم يدلف بذاكرته إلى الاعدادى لأن يسكن هذا الحى ولم يتركه منذ ولادته، منطقة الحسين وامتداداها شارع بورسعيد ومنه إلى السيدة زينب.. فى هذه عاش عمره من الابتدائى إلى الإعدادى إلى الثانوى ثم إلى كلية التجارة ولجت عيناه إلى هذه الشوارع.. هنا كان يلعب الكرة الشراب مع زملائه كان يقوم صباحاً ليصلى الفجر ويتواعد سراً مع زملائه من أجل اللعب وكان هو صاحب فكرة إقامة دورى لفصله كل عام وكان من ألمع لاعبى الكرة حتى أن الاب فكر جدياً فى أن يلحقه

بالنادى الأهلى الذى يشجعه ويستولى على اهتمامه الرياضى..كان هنا منذ عقود يلعب الكرة ويضع حقيبة كتبه بدلاً من الحجارة لتحل محل العارضة.. كان هنا منذ عقود طفلاً وصبياً والآن يدلف مضطرب القلب إلى الحسين من أجل أولاده.. فعلاً ما أسرع الأيام.. تمر حثيثاً وفى مرورها لا تُرى ولكن فى نهايتها تُرى عند القبور ولكن هذه الدنيا الخبيثة لها محطات أبرزها الشعر الأبيض وهنا ضحك ودارت يداه إلى شعره الأبيض كأنه يقول (كبرت) كان هنا يلعب وقبل أن يلعب يعمل من أجل مشروعه الكبير الألف كتاب وتكوين وجهة نظر.. هذه هى مدرسة الابتدائى وهذه هى حارته التى كان يقلبها رأساً على عقب من أجل الكرة وهو لا يزال يتذكر أنه أحرز الدورى ثلاثة مرات فى مدرسته الابتدائى.. كان هنا وهو يهرول جزعاً من أجل نتيجة الابتدائية وقد أصاب بها أكثر من ثمانين بالمائة من الدرجات ورغم أنه مجموع لا ينتمى إلى الامتياز ولكنه كان راضياً عنه لأنه من أوائل المدرسة.. وكان هنا عندما كبر ودخل إلى المدرسة الإعدادية وانتهى إلى الفريق الرياضى للمدرسة ثم إلى أوائل الفصول.. كان هنا.. كان هنا.. كان هنا.. دار عمره كله وهو

ويذهب إلى صلاة الفجر.. فتلخصت فى هذه الخطوات العديدة.. لن ينسى أبداً مهما عاش هذه المرحلة الإعدادية فى حياته لأنها مرحلة البلوغ إذ أنه بلغ دون أن يعلم وكم كانت صدمته قاسية عندما أدرك من الحياة ما أدرك.. فقد أدرك جانباً هاماً من جوانب حياة الرجل والمرأة ولم يصدق أن مثل هذا يمكن أن يحدث بل أنه جاء إلى هذه الدنيا عبر هذه العلاقة الجنسية المشروعة. وقد أخذ منه ذلك عاماً كاملاً حتى يتأقلم مع الفكرة.. كان طاهراً.. ولعل هذه الحادثة حادثة البلوغ وما وراءها من تصور العلاقة بين الرجل والمرأة أخذته إلى استكشافها فراح يجرب الحب وظل يحب لمدة شهر ابنة الجيران ولكنه أدرك فى النهاية أن هذا ليس أوان الحب لأن الحب لابد أن يكون بين الكبار وأن ما حدث له كان رغبة.. وهكذا فقد أدرك الفارق بين الحب والجنس ومن هذا المنطلق ترك هملت مؤقتاً ليذهب إلى القرآن ووجد فيه راحته.. وهكذا انتهت الأزمة.. أزمة البلوغ والحب.. بأن عبر الجسد من الطهارة الفتيانية إلى طهارة بداية الشباب وأصبح أكِثر قبولاً لفكرة النضج الجسدى وفكرة أن يتصل مع صعوده سلم العمر هذا الاتصال.. كان هذا

أول صراع له من الحياة.. وكان هنا أيضاً وهو يدلف بين الجوامع من أجل أن ينتصر الإسلام على إسرائيل فى حرب العبور.. كان سنه صغير ولكنه كان يدق الأرض فتنصهر الأرض أسفل غضباً للهزيمة النكراء التى قال عنها الأب (أنها هزيمة سياسية وليست عسكرية) وراح الابن ليفهم هذا المفهوم وفهمه من أبيه وقد أدرك أنه لابد لمصر العظيمة من رد وأن الرد لن يتأخر..

كان هنا وهو يردد قصائد نهج البردة وبعض مقاطع من هملت، وهو يردد أكون أو لا أكون راح إلى الكتب ليقرأ عن الاحتلال ويكتب فى مجلات الحائط حتى التفت إليه مدرس اللغة العربية لأن الشاب قال (إن الذى أخرج الاحتلال من الدلتا بقادر على أن يخرجه من سيناء) وكان هنا عندما انطلق من الأزهر جرياً إلى المذياع ليلتقطه الأب فى أحضانه مع العبور.. ومع العبور كان الحب.. مع العبور كان مزيد من العمل فقد انتقل من محلات الأقمشة إلى محلات الزهور فى ثانوى واستطاع أن يُحَصّل كم معقول من المال وأن يبدأ بعض التجارة لحسابه الخاص.. العبور أعطاه كبرياءه المفقود.. العبور أعطاه القدرة على أن يحب.. ووجدها..

زوجة فى مثل سنه.. وتلاقت العيون والقسمات والحيوات.. تعاهدوا على أن يكونا لبعضهما البعض بالعيون.. تعاهدا على أن تنتظره.. وعرف بيتها وكان يمر فى مواعيد منتظمة دون أن ينبس بكلمة وتعمد أن يزج بكلمات إليها وهى تمر بجانبه مفادها أنه لم يختار غيرها وردت هى بابتسامة خاجلة.. تلاقت العيون وامتدت مع مشاهد العبور إلى الجامعة.. وكان ذلك الصراع الثالث فى حياته.. الجامعة كانت المرحلة الأخيرة وكان فيها صميم الشباب وبداية الرجولة كان يعلم أن الجامعة هى بوتقة الانتصار لكل ما سبق من حياته وقد ساعده عمله فى الزهور على بعض التربح ولكن الأب صمم على التفرغ والعمل فى الأجازة.. كانت الجامعة تعنى بالنسبة إليه شيئاً آخر.. النضوج.. ذاك النضوج.. ذاك النضوج الذى حاول أن ينميه فى أبنائه ولكن الجامعة كانت تعنى له أشياء أخرى.. كانت تعنى له اللقاء.. لابد أن يتلقى بها.. كانت معه فى قسم أدبى وقد أدرك هذا من نوعية الكتب التى كانت تحملها وحمل حملة شعواء على كلية الآداب ووجدها وحاصرها وقال لها بعض الكلمات بعد على الأقل من عشرة تمهيدات وتفاهما ولكن الحب

لا يعرف الفتور وانتهى كل ما سبق من حياته إلى مشروع الارتباط واستطاع الحصول على أذن فى أن يعمل بالزهور بجانب دراسته وعندما لمست فيه الجدية كانت قصة حب قوية بين سلمى وبينه وكان اللقاء الدورى الذى يكاد يكون يومياً.. وكان هنا يختلف من شارع إلى شارع من المدرسة الابتدائية إلى الإعدادية ومعهما الشوارع الضيقة للعب الكرة ومنها إلى الثانوى الذى التحم بالنضج والعبور ليلتقى بالحب لينصهر كل هذا فى التقاء الروح بالروح.. وكانت الجندية.. وكان لابد منها ليتحول الشاب المكافح إلى رجل صارم يعلم معنى الفداء والبذل ومن هذه اللحظة كانت مصر بالنسبة إليه وقد تغيرت.. كانت مصر بالنسبة إليه الروح المقدسة والنغم الجميل والعشق المدوى ولكنها الآن أصبحت محلاً للفداء وكل شىء فيه وإليه الفداء.. كان هنا وهو يتسلم عمله بالضرائب فى بداية حياته الوظيفية ليتحول أخيراً إلى الرجل المسئول وهنا هدأت نفسه وأخذ العهد الأخير بأول قبلة من سلمى بألا تكون إلا له وكانت القبلة من الرأس إلى الرأس وبعدها كانا يسيران مع الورود فى نفس هذه الطريق.. وهى نفس الطريق التى يمر بها الآن

ليتذكر كل ما سبق فى يوم فاصل فى حياته يوم أن يتخرج ابنيه من الجامعة فى يوم واحد..

كان كل قلبه يقول (يارب) وهو يدخل المسجد وقد ارتفع صوت المؤذن بالآذان.. كالعادة ذهب إلى أقصى اليمين وبدأ التركيع.. كان صوت الدعاء دون كلام فهو مازال مأخوذاً بالصمت وكان الدعاء ينصّب إلى أن يدعو الله بالاسم الأعظم من أجل أن ينجح أولاده وهكذا وجد نفسه يدعو الله بالقوى فقد كان يدرك أن اسم الله العظيم القوى هو اسم الله الأعظم الذى دائماً ما يختاره ليدعو به الله فى أعز الأزمات فتتحول إلى فرحات وكان لاختياره اسم القوى خلال فيه.. فهو قوى ولكنه كان يملك فلسفة فى ذلك لأنه يعتقد أن الكفر بالله يبدأ بالضعف وأن إبليس الرجيم نفسه لم يتوقع نفسه أبداً رجيماً ولكنه الضعف لأن الضعف هو الذى يطرد الإنسان إلى ترك العبادة وترك العبادة سيؤدى إلى طرد الإنسان من رحمة الله فتحدث له تغيرات نفسية يدرك فيها أن الله غير موجود بعد أن تربى على أن الله موجود.. كان يملك هذا التحليل وقد قاله لكل من يعلم وكان دائماً ما يقول (أن الضعيف هو الذى لا يملك إرادة

فى أن يتوضأ ويصلى ومن ثم فى أن يكون فى جنب الشيطان عدو للإنسان وللمجتمع..

وكان يدرك أن هناك اسما لله غير معروف هو اسم الله الأعظم وكان يقول أن كل أسماء الله أسم أعظم وكان يردد أن اسم الله الأعظم الغير معروف مشتق من سورة الفاتحة وهذا ما أجهده سنوات ولكنه لم يكن ليقول هذا على الملأ لأن هذا اجتهاد وهو ليس من رجال الدين.. المهم أنه كان يدرك أن القوة هى الأساس وأن القوة هى التى تخلق الإنسان المحترم وأن اسم الله الذى اختاره هو هو القوى لأن الله القوى وأنه يريد من الإنسان أن يكون قوياً وأن من التدبير الإلهى فى خلق الإنسان أن يدفع الضعيف إلى المرض النفسى ثم الانتحار لأن الضعيف سارق وأن المجتمع لابد أن يتطهر تلقائياً بتدبير القوى دون أن يكون للحاكم تدخل فى ذلك من أجل ذلك فقد أدرك لماذا ينتحر فى الغرب الشباب لأنه بلا شك يترك الانجيل رغم أنه يملك المال أذن (كما قال) فالفقر والغنى بريئان من نهاية الإنسان النهاية التعيسة وأن الإنسان عليه أن يسعى ويحفر فى كل الاتجاهات طريقة قوياً

لهذا فقد اختار فى دعائه لله (القوي)، وعندما قامت الصلاة كان يتابع الآيات واستراح قلبه عندما تنسم قلبه كلمات سورة (طه) بنهايات آياتها وهى الألف الممدودة واستعد من أجل أن يستمتع إلى الآية الرائعة التى لا ينساها أبداً (أننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري) وقد سمعها جميلة رقراقة فأدرك أنه لابد من النجاح بأذن القوى.. وانتهت الصلاة وهناك فى ركن قصى من المسجد أخذ المصحف وأخذ يقرأ حتى الشروق آيات من الذكر الحكيم وقد بدأ ب(طه) كان يقرأ بينما قلبه متعلق بالله راجياً داعياً أن يتقبل الله دعاءه منذ سنوات بقبول حسن طامعاً فى الثواب وإجابة الدعاء من قِبل القوى كان ينوى القراءة إلى الشروق ولكن سورة طه انعشته وبثت قوافى الآيات فيه تقوى الله فدخلت الأنوار إلى قلبه فأخذ يقرأ الساعة بعد الشروق وكلما انتهى من سورة ركع وسجد.. كانت هذه هى عادته ولكنه فى حياته لم يزد فى قراءته عن الشروق، بعد ساعة أخرى أغلق المصحف الشريف وراح يغمض عينيه فالموعد قد اقترب.

أسرع خطواته وهو يردد يا قوى إلى الجامعة كان يعلم أن هذا

الموعد سوف يأخذه من عمله ولكنه يستطيع أن يتأخر عن عمله بعض الشيء اليوم خاصة أنها ليست المرة الوحيدة الذى يختلف فيها إلى الجامعة وما هى إلا ساعة أخرى حتى وجد نفسه أمام النتائج وكانت فريدة أول من ذهب ليرى نتيجتها وهناك انشرح صدره.. جيد.. الحمد لله.. واتخذ مواصلة إلى كلية الهندسية ولمح ابنه بعيداً وهو سعيد فأدرك أنه لابد وقد نجح ولكنه لم يكن يدرك إلا أنها نتيجته هو لا نتيجة ابنه ولمحها جيد جداً.. الحمد لله يا القوى.. كانت رحلة الإياب سعيدة.. كان منتشى منشرح الصدر.. أدرك شيئاً بعد أن تذكر اليوم الصبوح الذى ذهب فيه إلى الجامعة ليراجع نتيجته كان مثل هذا اليوم الصبوح وكان يسير فى نفس الشارع وهنا أدرك نفس شعوره وهتف من أعماقه (أنا إنسان محترم) كم كان وقع الكلمة جميلاً على أعماقه.. كان يريد أن يكلل حياته بعمل جميل فارق وقد أحصى أن فى حياته على الأقل عشرة مواقف فاصلة استطاع أن يجتازها بنجاح وأن هذا الموقف بالذات هو تتويج ممارسته للقوة طوال أكثر من أربعة عقود فى حياته.. وكانت نهاية قوته أنه استطاع أن يكون أسرة صالحة بقوة فى زمن

صعب وأنه استطاع أن يصنع للمجتمع مهندس وطبيبة وأن هذه هى نهاية انسان قوى.. وهنا هتف (أنا إنسان محترم) اكتسحه الهدوء وعلى الفور رأى سلمى من أمامه فلاشك أن الابنين لديها الآن ولاشك أن الابنين يعلمان أن الأب راح إلى الجامعة ولكنه ككل عام لا يحب أن يراه أحد وقبلها من رأسها وأطلق لنفسه عنان الراحة والصعداء.. كان الطريق فى شدة الازدحام ولكنه كعادته لم ير أى شىء يستحق الضجر، كان كل شىء عادى مهما كان الزحام فهناك تفهم الزحام وهناك الرحمة وهناك الطمأنينة.. عبر طريقه عبر المواصلات وهو فى قمة الهدوء وفى نفسه أصداء هذه الجملة القوية الراشقة أنا إنسان محترم.

دخل ديوان الضرائب فى هدوء.. جلس فى مكتبه وقد أمر الكثير بألا تُدخل إليه إلا من هو ضرورى سواء من أشخاص أو من أوراق.. ابتسم ابتسامة الواثقين وهو يسند ظهره إلى الكرسى الفاخر وقد احاطتا عيناه بكل أجزاء حجرته، داعبته فكرة لطالما أراد أن ينفذها. كان منذ وقت طويل يريد أن يخاطب ملكة إنجلترا ليلفت النظر إلى فكرة من أفكاره مرتبطة بهدية الأب منذ الزمن البعيد وكانت

المناسبة مواتية فى حينها وهى وفاة الأميرة (ديانا) أميرة ويلز.. وقد سمح له هدوءه وثقته بنفسه أن يتجاوز مرحلة نفسية عميقة هى أن جلالة الملكة كانت على رأس الحكومة التى تحتل مصر ولكن الزمن قد دار وانتهى الاحتلال البريطانى.. واندثر الاحتلال الصهيونى فى سيناء إلى غير رجعة ومصر قد تحررت والمناسبة سعيدة وقد كانت تلك أمنية منذ زمن بعيد فلم لا؟

وفى لمح البصر أمسك بورقة وقلم وكتب رسالة مطولة قدم فيها العزاء إلى جلالة الملكة فى وفاة الأميرة (ديانا) وسمح لنفسه كمواطن فى هذا العالم بأن يُحيى بريطانيا على أنها من أعرق دول العالم فى كل شىء خاصة حقوق الإنسان وأن اللنبى كان مخطئاً عندما ركل قبر صلاح الدين وأن الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس مازالت لا تغيب عنها الشمس (بهاملت) لأن هاملت فى مكتبات الصين وتمتد إلى أقصى غرب الولايات المتحدة وأن شكسبير فخر بريطانيا وأن الاحتلال زال ولكن شكسبير مازال موجوداً وأنه استطاع كبريطانى ومسيحى مخلص أن يحقق مقولة الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس وأن أميرة الحب والورود (ديانا) قد

ماتت فى حادث أليم ولكن الحب مازال موجوداً فى كل القلوب.. وفى نهاية خطابة المطول المكتوب باللغة العربية أبرز أمله فى أن ترد جلالة الملكة على رسالته وعزاءه.

كانت هذه أمنيته منذ زمن طويل أن يراسل ملكة بريطانيا بالتحديد كأنه يشارك فى زوال الاحتلال الذى قام به الشعب المصرى منذ الاحتلال منذ عام ١٨٨٢ م حتى انتهى بحركة الجيش وثورة الشعب معاً عام ١٩٥٢م مروراً بحرب التحرير فى القناة عام ١٩٥١م وقد وجد الفرصة سانحة، وفى لمح البصر أمهر الخطاب وأغلق المظروف وألصق الطابع.. كان كل شىء هادئاً فى مكتبه خاصة أن السكرتيرة التى تعرف عملها جيداً عزلته اليوم عن الوجود رغم أنها لا تعلم السر الذى من خلاله جاء متأخراً اليوم على غير عادته.. كان يفكر فى هدية إلى ابنيه وفى لمح البصر قرر، سيشترى لماجد قلم حبر فاخر ولفريدة وشاح جميل على أن تكون هاتان الهديتان مؤقتتين لكل منهما وأيضاً لسلمى هدية منفصلة كما يريدون.. وفى غضون ساعة كان تاركاً مكتبة إلى البيت حيث الاحتفال بهذا الإنجاز الرائع.

وكعادته كان رحيماً فى المواصلات برغم ازدحامها وفى سرعة اختلف إلى وسط البلد حيث اشترى الهديتان ومع الهديتان وشاح آخر لسلمى بلون السمار.. كان كل شىء يصرخ ولكن قلبه كان كعادته مطمئناً فلم يلمح من المواصلات الازدحام بل زادت زحمة حتى بيته.

كان الاستقبال حافلاً فقد أعدت سلمى كل شىء الجاتوه والشاى وجاءت الهدايا لتُسعد الأسرة البسيطة وقلبه مازال يردد (أنا انسان محترم)

بعد الحفل مباشرة كان عليه أن يطمئن أصدقائه فى قهوته فى عابدين.. وجاءت الأفراح من كل صوب كانت هناك خمسة نجاحات من خمسة وهكذا جاء دور الشطرنج لأنه لا يلعب إلا الشطرنج دوراً ساخناً.. كان يلعب بينما نفسه فى حياتها الخاصة.. كان سعيداً لأنه استطاع أن ينجح لأنه أستطاع أن يحفر طريقاً فى حياته فى مجتمع صعب وفى منطقة يسميها العالم.. العالم الثالث.. كانت أوراق عمره كلها كبيسة ولكنها مهرها وأعاد ترتيبها لينظم لها قصيدة شعر جميلة تكون نبراساً له ولكل من حوله. لم يرضى

أن يكون كومبارس فى الحياة فعاندها وأجبرها على أن تطيعه وأخذ يردد نفسياً على صمته أن الإنسان يستطيع فقط إذا أراد أن يستطيع.

فى المساء بعد العشاء الخفيف كانت سهرته جميلة مع سلمى وقد أشرقت بابتسامة راقية ثم كان ما كان بينهما من عشق فريد..

انتهى يوم الصمت

فهرس المحتويات

(1) أوراق العمر 5

(2) الكومبارس 24

(3) أ - المُغامِرة 41

(4) لا 70

(5) سعاد تدق الأجراس 115

(6) وحيد 137

(7) الساعة 162

(8) الصامت 218